

الإصلاح الديني

هل كان هدفاً للحسين (ع)؟

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

1422هـ - 2001م

دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: 01.550487 - 03.896329 - فاكس: 541199-ص.ب: 25\286 غبيري- بيروت لبنان

Tel:03\896329- 01\550487 -Fax: 541199 - P.O Box: 286/25 Ghobeiry-beirut –Lebanon

E-Mail: daralhadi@daralhadi.com – URL: <http://www.daralhadi.com>

الإصلاح الديني

هل كان هدفاً للحسين (ع)؟

تأليف

الشيخ محمد شقير العاملي

تنقيح

الشيخ وسام شقير

دار الهادي

للطباعة والنشر والتوزيع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

إلى والديّ الكريمين

شاكرًا لهما فضلهما...

وداعياً لهما بالخير والصحة

اهدي هذا الكتاب...

شكر وتقدير

اتوجه بالشكر إلى كل الذين ساهموا في إنتاج هذا الكتاب،
وخصوصاً الإدارة الكريمة لدار الهادي.

مقدمة الكتاب

إن السؤال عن الهدف الذي خرج من أجله الإمام الحسين (ع) كان ولا زال سؤالاً أساسياً ومشروعاً قد شغل بال الباحثين فاستنهض عقولهم واستفز اقلامهم ليبيّنوا الأهداف التي كان يخطط الإمام الحسين (ع) لبلوغها والوصول إليها وليبحثوا عن تلك الإنجازات التي استطاعت الثورة الحسينية ان تقدمها.

عندما نريد أن نبحث في الثورة وأهدافها وانجازاتها يجب أن يكون هناك تحديد مسبق للمقدمات او المسلمات التي نمتلكها والتي نريد ان نحاكم على اساسها انجازات الثورة. إن القول مثلاً بعصمة الإمام (ع) – كما هو في مدرسة اهل البيت (ع)- بذلك المستوى الذي يشمل ادائه وسلوكه السياسي والاجتماعي ... سوف يؤدي تلقائياً الى القول بعصمة ذلك الأداء السياسي والعسكري الذي اعتمده الإمام الحسين (ع) عند خروجه من المدينة واعلانه لثورته وهنا يتحول البحث الى تحديد لتلك الاهداف التي خرج من اجلها الإمام الحسين (ع) والإنجازات التي تترتب على شهادته لانه كان يعلم بمصيره وكان يريد من خلال هذه الشهادة ان يحقق مجموعة من الانجازات التي ما كانت لتتحقق لولا فعل الشهادة.

ان الحديث عن الأهداف – الإنجازات هو حديث مهم ويجب ان يُشبع بحثاً ولا يمكن الإدعاء انه قد بلغ نصابه، وإن الثورة الحسينية قد

افصحت عن اهدافها وتحدثت ببيانات الثورة عن جملة اهداف محددة كالاصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومواجهة الظلم...

ان الكثيرين عندما تحدثوا عن قضية الإصلاح فانهم توجهوا إلى الإصلاح الإجتماعي والسياسي والاقتصادي لكنهم لم يتطرقوا الى قضية الاصلاح الديني او لم تعط حقها المطلوب، فهل كان الإصلاح الديني هدفاً للإمام الحسين (ع).

ان هذا التساؤل عن الإصلاح الديني يقودنا الى جملة تساؤلات منها ما هو المقصود بمفهوم الاصلاح الديني وهل ان الاصلاح الديني كان هدف الأنبياء والأئمة (ع)؟ والإمام الحسين (ع) عندما خطط لثورته المباركة هل كان يلحظ هذا الجانب من الإصلاح ام لم يكن محل إهتمام منه؟ وكم هو حجم الأهمية المعطاة لهذا الجانب من الإصلاح؟

وأساساً هل كان هناك فساد ديني؟ وهل كان حجم هذا الفساد بالمستوى الذي يستدعي خروج امام معصوم ليقدم نفسه واهل بيته على مذبح الشهادة؟ وهل ان السلطة الأموية كانت تعنتي بالمعرفة الدينية؟ وهل ان تلك السلطة كانت تمتلك مشروعها الفكري والثقافي؟ وإذا كان هذا المشروع موجوداً واقعاً فما هي مشخصاته وأدواته؟ وما هو نتاجه؟ وإلى أي مدى استطاعت السلطة الأموية ان تستمر في هذا المشروع؟ وما الذي استطاعت ان تنجزه فيه؟

لا شك ان هذه الأسئلة تثير شهية الباحث للخوض في غمار هذا الموضوع باعتبار انه يبرز جانباً مهماً من المواجهة التي كانت سائدة بين المشروع النبوي متمثلاً بأهل البيت (ع) وبين المشروع الأموي

متمثلاً بالسلطة الأموية. انها المواجهة المعرفية بل والدينية اي المواجهة بين المدرسة الفكرية للسلطة وبين المدرسة الفكرية لأهل البيت (ع) بين مدرسة كل شغلها ان تقدم التبرير الديني للأداء السياسي للسلطة وان تبرز التسويغ الإسلامي لكل ما ترتكبه تلك السلطة حتى لو كانت تخالف الدين في العمق وتنتهك الإسلام في الصميم وبين مدرسة تريد ان تصنع النموذج الإسلامي على ضوء الدين وسنة خاتم النبيين صلوات الله عليه وآله اجمعين.

المدرسة الأولى هي صنعة السلطة ومأجورة لها وتعمل بإمرتها والمدرسة الثانية هي صنعة رسول الله (ص) وتعمل طبقاً لما اعداه له ولما حملها من وظيفة وكلفها من مهام.

إن ما انتجته مدرسة السلطة إلى ذلك الوقت هو قدسية الخليفة ومكانته الدينية، ودينية كل ما يصدر عنه ونستطيع ان نلاحظ في هذا الجانب تلك الألقاب الدينية التي تضي على الخلفاء الأمويين، وكانت السلطة معنية بالديني بقدر كبير أولاً لاقتران السياسي بالديني على مستوى المشروعية وثانياً لأن الديني يمثل قوة في الواقع السياسي والإجتماعي ومن هنا نشأ الخطر حيث استهدفت السلطة المعرفة الدينية والنص الديني ادراكاً منها لدورها الخطير والكبير، وإنه مع بقائهما على تلك الصورة التي بلّغها رسول الله (ص) فإنها لن تستطيع ان تبلغ مصالحها او تحافظ على مكتسباتها، ولذا انقضت على الدين متمثلاً بمدرسة أهل البيت (ع) وسعت إلى ضرب رموز تلك المدرسة واسقاطها على المستوى المعنوي والديني.

إن السلطة الأموية لم تترك وسيلة إلا واستخدمتها، من المال

وشراء ضمائر الرجال وإلى السيف والسم والسجن لكن الوسيلة الأخطر هي الدين نفسه لأنها أخذت تعمل فيه وضعاً ودساً وتحريفاً من جهة ومن جهة أخرى فإنها بسلوكها المتلبس بلباس الدين كانت تقدم صورة مشوهة وقاتمة عن الإسلام ومنفرة منه.

إذا ادركنا حجم ذلك الخطر على الدين والإسلام في تلك الفترة استطيع هنا أن أقول – وبضرس قاطع- ان السلاح الوحيد الذي كان يمكن ان يزيل الخطر عن الدين ويسقط دينية السلطة ويحطم مدرستها الثقافية هو فقط فقط وشخص الإمام الحسين (ع) بدمه ورأسه، وصدره ونحره، وباختصار ووضوح إن السلطة التي تقتل حسيناً هي لا سلطة ولا تنتمي إلى الدين بصلة، لقد قطع الإمام الحسين (ع) بشهادته شعرة معاوية التي كانت تربط بين الدين وبين سلطة الأمويين لقد سقطت قدسية الخليفة ودينية الخلافة، ولو لم يفعل الحسين ما فعل ما كان يستطيع احد غيره – لخصوصية الحسين(ع) - ان يؤسس لنهاية المشروع الأموي وخصوصاً في جانبه المعرفي والثقافي والذي تولاه من بعده الأئمة من ذريته (ع).

لقد وعى أئمة أهل البيت (ع) حجم المخاطر التي يحملها المشروع الأموي انها مخاطر يمكن ان تهدد الدين من اساس، ولكن هذه المرة يعمل على اسقاط الدين باسم الدين، صحيح ان معركة التنزيل قد ختمت وكانت نهايتها لصالح الاسلام لكن معركة التأويل قد فتحت بل معركة الوضع والتحريف التي حمل لواءها المشروع الأموي.

إن خروج الإمام الحسين(ع) لا يمكن فصله عن هذه المعركة وتلك المواجهة، وحتى لو كان الإمام الحسين (ع) يعلم بشهادته -وهو كذلك - فلربما نتائج لا تتحقق إلا من خلال فعل الشهادة، لان الكلمة

آنذاك - إلى حدٍ ما - قد استهلكت والموعظة قد استنفذت ولم يعد يحرك ذلك السكون العميق والسبات الهائل ولم يعد يحطم تلك الواجهة الدينية وذلك الزيف باسم الدين إلا حدث كبير ووقع مدوي يستنهض الأمة من سباتها ويجدد فيها عزيمتها ويعري تلك السلطة من ورقة توت كانت تتستر بها.

إن الدين ليس عقلاً فقط إنَّه عقل وعاطفة كلمة وشعور فكرة وأحاسيس إنَّ العقل يؤدي إلى العاطفة والعاطفة ربما تحرك العقل، إنَّ الدين يريد أن يستخدم فطرة الإنسان بكب إمكانياتها في سبيل دفعه نحو الهداية والصراط المستقيم وتلك الفطرة تمتلك الشعور كما تمتلك الوعي، وكما يُعمل على الإستفادة من وعي الإنسان وعقله يُعمل أيضاً على الإستفادة من عاطفته وشعوره. ولربما تكون الحاجة في ظرفٍ ما إلى المشاعر أكثر ولربما في ظرفٍ آخر إلى العقل أكثر وإن كانت الحاجة اليهما معاً لا تُعدم.

إنَّ غزل الدم والوعي لا يُغفل وقصة الشهادة والثقافة لا تُهمل، بينهما نسيج يعيه من قرأ قصيدة الحسين (ع) وعرف خاتمها، لولا شهادة الحسين (ع) لما كان هناك دين باسم الإسلام او قد يكون إسلام لكن إسلام السلاطين إسلام التخدير والتبرير لا إسلام التنوير والتغيير.

مدخل

ليس من السهل الإحاطة دفعة واحدة بكل الظروف والأهداف التي ترتبط بثورة الإمام الحسين (ع) إذ أن الأهداف التي عنت بها هذه الثورة هي عديدة ترتبط بأهداف الدين عامة ومهمات الإمامة المعصومة على المستوى الإجتماعي والسياسي على المستوى المعرفي والتربوي. وهنا قد نجد ان كثيراً من الأبحاث والدراسات قد اهتمت بتلك الثورة على مستوى اهدافها السياسية والإجتماعية لكن قليلة تلك الأبحاث التي تناولت تلك الثورة من جهة كونها مشروعاً للإصلاح الديني، بمعنى ان صراعاً معرفياً كان دائراً بين المدرسة الفكرية لبني أمية وبين المدرسة الفكرية لأهل البيت (ع)، صحيح ان تلك الثورة لم تكن في الظاهر حركة معرفية إنما كانت حركة ثورية تغييرية بمعناها الإجتماعي السياسي، لكنها ليست مفصولة في دوافعها واهدافها عن تلك البيئة المعرفية الدينية التي نشأ قاداتها في احضانها وتربوا فيها، إن نظرة تاريخية فاحصة إلى مشروع السلطة – السلطة الأموية – آنذاك تبيّن حجم تلك الأخطار الكبيرة التي كانت تهدد الفكر الإسلامي بمجالاته كافة الكلامية والسياسية والأخلاقية... مما يعني أنّ عملية تشويه كبيرة للدين الإسلامي كان يجري العمل عليها بشكل منظم ومبرمج مدعوماً بقوة السلطة وإمكاناتها من أجل انتاج مجموعة مفاهيم منسوبة إلى الدين يكون الهدف من ورائها إعطاء المشروعية الدينية للسلطة الأموية وخلق الأجواء المعرفية والكلامية المناسبة لاستمرارها وديمومتها. إنّ مراجعة دقيقة للتاريخ المعرفي لتلك

المرحلة التاريخية تكشف عن وجود صراع معرفي محموم بين مدرسة أهل البيت (ع) وبين المدرسة الأموية. كانت السلطة فيه إحدى أدوات هذا الصراع، بل كانت بالنسبة إلى الأمويين المحور وتمثل الهدف الذي يراد الحفاظ عليه مهما كانت النتيجة حتى لو تطلب الأمر تقديم منظومة من المفاهيم الدينية تخالف الدين في جوهره وحقيقته.

إن الدين يصبح في هذه الحالة – بالنسبة إلى الأمويين – وسيلة معرفية يراد منها أن تخدم مصالح سياسية ضسقة ومحدودة وأن يكون كأداة من أجل تكوين وعي معرفي شعبي يساهم في مقاومة الوعي المعرفي المعارض الذي كان يهدد بالخطر أركان الملكية الأموية وديمومتها.

ومن هنا لم يكن الصراع آنذاك صراعاً على السلطة بمعناه الكلاسيكي إن من التبسيط بمكان أن ننظر إلى تلك المواجهة باعتبار كونها صراعاً سلطوياً، إن طبيعة الحدث – موضوع تتطلب منا أن نتجاوز المعالجة السطحية لنصل إلى قراءة عميقة ومتأنية لذلك الحدث التاريخي المتميز في التاريخ الإسلامي. إن ما حدث في كربلاء لم يكن طفرة تاريخية أو عثرة من عثرات التاريخ بل كان حلقة في مسيرة مواجهة بدأت مع رسول الله (ص) وامتدت إلى علي (ع) ثم الحسن (ع) حتى وصلت إلى الحسين (ع).

إن المشروع الديني قد كان حاضراً في ساحة المواجهة آنذاك وقد أرادت الإمامة المعصومة أن تقوم بوظائفها وأن تتصدى لمهامها وكان الدين عنصراً من عناصر المواجهة وسلاحاً فعالاً في حسابات النصر والهزيمة، لكن بقاء الدين على ما كان عليه وكما جاء به محمد

بن عبدالله (ص) لم يكن يسمح للسلطة الأموية ان تستفيد منه كثير الإفادة بل كان يمثل عقبة كبيرة امامها فكان لا بد من تشويه للدين ومن صياغة منظومة مفهومية دينية تستطيع ضمان ذلك الهدف، فضلاً عن أنه كان قد استقر في الوعي الإسلامي العام ذلك الإقتران بين ما هو ديني وبين ما هو سياسي اي بين الولاية الدينية والولاية السياسية، وهنا تكمن الخطورة إذ أن ما كانت تقوم به السلطة الأموية إنما كان بإسم الدين وباعتبار كونها امتداداً للخلافة الإسلامية وبالوالي لم يكن ذلك التبرير الديني للسياسة الأموية ليقصر ضرره على تلك المرحلة المعاشة آنذاك بل كان ليمتد إلى كل المراحل التاريخية اللاحقة عليه باعتبار أنه سيتحول إلى مرجعية معرفية مشوهة هذه المرجعية المشوهة لن تنتج إلا فكراً مشوهاً، إن مرجعية صاغتها أقلام السلطة من أجل مصالح سلطوية ضيقة لن تقف تداعياتها الخطيرة عند حدود العمر الزمني لتلك السلطة ومشروعها الآني، بل سوف تتحول إلى مادة معرفية سامة تهدد بالموت كل تلك الأجيال اللاحقة وكل أولئك التقليديين في فكرهم ومعتقداتهم الذين أكلوا الطعم السام ويريدون لغيره أن يطعمه بإسم الدين وشريعة سيد المرسلين(ص).

إن تحريفاً خطيراً بهذا الحجم سوف يدفع ثمنه الكثير من الناس وخصوصاً على مستوى تسجيل تجربة منحرفة بإسم الدين وتقديم صورة مغلوطة عن الدين على كافة المستويات السياسية والإجتماعية وهو ما سوف يؤدي إلى إبعاد الناس عن الدين وحرمانهم منه، لأجل هذا ولأجل كل ما ذكرنا كان من الضروري حدوث عملية إصلاح ديني تسلب السلطة الأموية ورقة التوت الدينية وتنزع منها تلك المشروعية التي تنتمي إلى الدين وتوجه ضربة قاضية إلى تلك المرجعية المعرفية التي كانت في طور التأسيس وتعطل مفعول كل تلك الصناعة المعرفية التي كانت تروج لها الأبواق الإعلامية للحزب الأموي وأقلام السلطة المأجورة، إن الهدف

هو اسقاط المدرسة الفكرية للسلطة.

قد يقال أنه من الواضح إلى حدٍ ما أنّ المشروع الأموي كان مشروعاً سلطوياً دنيوياً ولا داعي لذلك التهويل من التدايعات المعرفية للمدرسة الفكرية الأموية أو أنه اساساً هل توجد هكذا مدرسة؟

هنا أستطيع القول أن القرب الزمني للتجربة الأموية من مرحلة صدر الإسلام – حتى أنّ معاوية مؤسس هذه التجربة في التاريخ الإسلامي كان مبرزاً على أنه من صحابة رسول الله (ص) – واقتران السياسي بالديني بما يعني ضرورة العبث بالديني المعرفي من أجل حفظ المصالح السياسية وتبرير أفعال السلطة وتلك الإمكانيات التي امتلكتها السلطة وقتذاك لتسخيرها من أجل اهدافها... كل ذلك ينذر بالخطر سلامة الدين والتجربة الدينية.

إنّ نظرة فاحصة في المحصول المعرفي الأموي وفي السلوك الديني الأموي يؤكد تلك الحقيقة التي أشرنا إليها سابقاً أنّ مدرسة فكرية قد قطعت شوطاً من عمرها، وكان يراد لها أن تستمر من أجل بناء ثقافة تخدم مشروع السلطة ومصالحها.

وجدير بالإشارة أنّ البحث في الثورة الحسينية من ناحية بُعدها الإصلاحية الديني يُغني الفكر الحسيني ويساهم في كشف بُعد من أبعاد الثورة لا يقل أهمية عما عداه.

الإصلاح في اللغة:

الإصلاح هو الإتيان بما هو صالح ونافع ومفيد والإصلاح في كل شيء إنما هو الإتيان بالمفيد بحسب ذلك الشيء، ذُكر في معجم الوسيط: " اصلح في عمله أو أمره: اتى بما هو صالح نافع و(أصلح) الشيء: ازال فساده و(أصلح) بينهما أو ذات بينهما أو ما بينهما أزال ما بينهما من عداوة وشقاق. وفي التنزيل العزيز: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾ و ﴿اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم﴾، و(أصلح) الله لفلان في ذريته أو ماله: جعلها سالحة، وفي التنزيل العزيز: ﴿وأصلح لي في ديني﴾⁽¹⁾.

مفهوم الإصلاح الديني:

إنَّ مفهوم الإصلاح الديني لا يعني بالضرورة انتاج مذهب جديد أو ابداع منظومة من المفاهيم الدينية، بل إنَّ مفهوم الإصلاح يتسع ليشمل حتى القضاء على مدرسة فكرية قد ارتدت اللباس الديني وهي لا تمت إلى الدين بصلة.

عندما نتحدث عن عملية إصلاح ديني فمعنى ذلك تحقق عناصر تلك العملية في الدائرة الدينية، وهذه العناصر هي:

- أولاً: المقاييس الإصلاحية: وهذه المقاييس تتمثل هنا في الدين

(1) ص: 520.

نفسه بصورته النقية وبمصادره الأساسية والتي هي القرآن الكريم والسنة المعصومة حيث يصبح النص الديني مرجعاً يرجع إليه من أجل إصلاح كل تلك المفاهيم التي نسبت إلى الدين وهي غريبة عنه ودخيلة عليه.

● **ثانياً:** القيادة الإصلاحية : إذ لا بد من وجود قيادة حكيم تعي تلك المقاييس بشكل دقيق وتدرك ضوابط العملية الإصلاحية وتعرف أهداف العمل الإصلاحي وهي مستعدة أن تدفع ثمن الإصلاح مهما غلت تضحياته قناعة منها بضرورته رغم ما ينطوي عليه مشروع الإصلاح الديني من مخاطر وخصوصاً إذا إمتزج الديني بالسياسي وليس السياسي قناع الديني فإن العملية تصبح أخطر وأعقد.

● **ثالثاً:** مبررات العمل الإصلاحي: ونعني بذلك حصول انحراف ما في الدائرة الدينية الذي له اشكال متعددة من قبيل ان تنحرف مسيرة دينية باكملها فتحتاج إلى عمل يعيدها إلى طريقها الصحيح وأن ينشأ مذهب فكري أو مدرسة فكرية في الإطار الديني أي تأخذ من الدين تبريراً معرفياً لها لتضفي على مفاهيمها ومعتقداتها لباساً دينياً مع كونها تخالف النص الديني والمنهجية المعتمدة من قبل المعرفة الدينية في صناعتها لمفاهيمها ومفرداتها، وهو ما يتطلب عملية إصلاح تُظهر غربة تلك المدرسة بمفاهيمها ومفرداتها عن الدين وكونها جسماً معرفياً أجنبياً عنه بل يُشكل خطراً عليه وعلى سلامة معتقداته ومفاهيمه.

وينبغي التأكيد على أنه في قراءتنا لأسس الإصلاح الديني يجب

أن نلتفت إلى قضية جداً مهمة وهي أنه عندما نريد أن نقرأ تجربة معينة من نجارب الإصلاح الديني يجب ألا نأسر فكرنا بين جدران تلك التجربة بمعنى الا نمتلك القدرة على استخلاص مفاهيمها، بل يجب ان نكون دقيقين جداً من ناحية التفريق بين العوامل والسنن التي حكمت الواقع التاريخي وبين الصناعة المفهومية التي لها ضوابطها وتقنيها الخاص بها. إنَّ تجربة الإصلاح الديني البروتستانتية هي تجربة غنية تستحق أن تُقرأ بدقة وان يُكتشف من خلالها جدل الديني مع الديني، لكن شرط أن نمتلك القدرة على التعميم الصحيح من خلال قراءة منهجية صحيحة للتاريخ، وإلا فإنَّ قراءة خاطئة للتاريخ من خلال قراءة التجارب البشرية التي حملها لنا سوف تؤدي إلى تعميم خاطئ من التاريخ ولا شك أن التعميم الخاطئ سوف يؤدي بدوره إلى تطبيق خاطئ في الواقع الاجتماعي المُعاش.

إنَّ ما نريد قوله هو أننا لا نستخدم هذا المصطلح باعتبار كونه حاكياً عن خصوصية تجربة تاريخية معينة، لأنَّه لا شك أنَّ المصطلح الذي يكون وليد تجربة تاريخية ما فإنَّه سيحمل إichات تلك التجربة التي سوف تترك بصماتها عليه مما قد يؤدي إلى إيجاد أكثر من لبس في الفهم، إلا إذا عمل الباحث على تلافيه بشكل أو بآخر.

إننا نستخدم هذا المصطلح بما هو نتاج للمعرفة الدينية الإسلامية وبما هو حاكٍ عن ذلك المعنى الأصيل في البيئة المعرفية الإسلامية، لأنَّه "من باب التضليل المؤذي إلى أبعد الحدود أن يحاول الناس تطبيق المصطلحات التي لا صلة لها بالإسلام على الأفكار والأنظمة الإسلامية، حيث أنَّ للفكرة الإسلامية نظاماً

اجتماعياً متميزاً خاصاً بها وحدها يختلف من عدة وجوه عن الأنظمة السائدة في الغرب"⁽¹⁾ كما يقول الباحث النمساوي محمد أسد.

هنا من المناسب أن نعود إلى عملية الإصلاح كما يبينها لنا القرآن الكريم.

الإصلاح في القرآن الكريم:

لقد تحدث القرآن الكريم كثيراً عن الإصلاح وقد وردت مادة هذه الكلمة عشرات المرات في الكتاب العزيز وفي موارد عديدة نذكر منها على سبيل المثال:

- 1- ثمار الإصلاح: يذكر القرآن الكريم ثماراً عديدة للإصلاح على المستوى الفردي أو غير الفردي، هذه الثمار التي يمن بها علام الغيوب على عبده الصالح.
(أ) المصلح لا يحزن ولا يُخاف عليه، يقول تعالى: ﴿فمن آمن واصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾⁽²⁾.
- (ب) أجر المصلح على الله تعالى: ﴿فمن عفا واصلح فأجره على الله﴾⁽³⁾.
- (ج) الإصلاح يمنع العذاب: ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم

(1) مجلة التوحيد، عدد 97، ص 130.

(2) الانعام:48.

(2) الشورى:40.

2- الإصلاح هدف الأنبياء: ينص القرآن الكريم على أن الإصلاح

هو هدف أساسي من أهداف الأنبياء (ع)، ولذلك كان دعوتهم (ع) تشدد على عملية الإصلاح وعلى النهي عن الإفساد والسعي للقضاء عليه بكافة اشكاله وصوره، وإن أكثر معاناة الأنبياء (ع) والأوصياء والأئمة (ع) انما كانت بسبب مشاريعهم الإصلاحية وعملهم الإصلاحي الذي لم يكن ليروق للذين يستفيدون من الفساد الحاصل بل إن مصالحهم تكمن في شيوع الفساد الحاصل وانتشاره، فإذا نجح العمل الإصلاحي فإن تلك المصالح تصبح في معرض الزوال ولذلك يقاومون الإصلاح ويعملون على محاربتة بشتى الاساليب وبكل الطاقات من محاصرة العمل الإصلاحي إلى الترغيب والترهيب إلى الإعتقال والسجن والتعذيب والنفي بل حتى لو تطلب الأمر التصفية الجسدية.

إن الطواغيت وسلطين الدنيا لم تكن لتجفل وتستشعر الخطر من مفاهيم دينية لا تعارض الإفساد، ولا تدعو إلى مقاومته، بل كانت تأنس بمن يقدم لها التبرير الديني لإفسادها ومواجهتها للإصلاح وتغدق عليه العطايا والهبات وهي لا شك تسعى لشراء الضمائر والمواقف، من هنا فإنها تعتني بأمر الدين

وتجهد للإستفادة منه حتى لو تطلب الأمر لتحريفه أو لإبعاد الناس عنه بثتى الوسائل،ولذا فقد كان الإصلاح الديني هدفاً اساسياً للأنبياء يقول القرآن الكريم في هذا المجال:

أ) في النهي عن الإفساد: ﴿ لا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ﴾ (1).

وقد ذكرت وجوه عديدة في تفسير هذه الآية منها ما روي عن الإمام الباقر (ع) من أن الأرض كانت فاسدة فأصلحها الله بنبيه (ص)، ولا شك ان عملية الإصلاح الديني قد كانت من أهم الأهداف التي سعى إليها رسول الله (ص).

ب) الإصلاح الشعبيي: ﴿ إن أريد إلا اصلاح ما استطعت ﴾ (2).

يتحدث القرآن الكريم عن ذلك الفساد الذي كان منتشرأ بين قوم شعيب حيث نهاهم نبيهم عن ذاك الفساد ﴿ ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ (3) وحذرهم من عواقبه ونتأجه وبين لهم من دعوته بأنه لا يريد إلا الإصلاح وأن رسالته هي رسالة إصلاحية.

ج) الإصلاح يعود بالخير: ﴿ لا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها

(1) الأعراف: 56.

(2) هود: 88.

(3) هود: 85.

ذلكم خير لكم ﴿(1)﴾.

بعد أن ينهي الله تعالى عن الإفساد في الأرض – بعد ان اصلحت – فإنه يبين أن هذا الإصلاح يعود بالخير على الإنسان ولا شك أن هذا الخير ليس في مجال واحد بل هو في مجالات متعددة مختلفة اجتماعية واقتصادية...

3- الإصلاح الإنساني: كما أن القرآن الكريم يتحدث عن الإصلاح بشكل عام فإنه يتحدث في بعض آياته عن الإصلاح في دوائر محددة فهو في الوقت الذي يحث الإصلاح عامةً من جهة تبين ثماره اخروياً ودنيوياً فإنه يحدد القول ويفصله على مستوى الإصلاح في الدائرة البشرية في مجالات عديدة فردية واجتماعية.

(أ) في المجال العائلي: يقول تعالى بالنسبة إلى الزوجين:

﴿ فلا جناح عليهما ان يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير ﴾ (2).

(ب) إصلاح ذات البين : يؤكد القرآن الكريم كثيراً على إصلاح ذات البين ويربط بينه وبين تقوى الله تعالى من جهة أن التقوى لا بُدَّ أن تُثمر إصلاحاً، يقول تعالى: ﴿ فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم ﴾ (3).

(1) الأعراف: 85.

(2) النساء: 128.

(3) الأنفال: 1.

ت) الإصلاح بين المؤمنين: يقول تعالى في هذا المجال: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ ﴾ (1).

ج) الأصلاح بين الجماعات الدينية: يقول عز وجل في هذا المورد: ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ (2).

والنتيجة التي يمكن أن نستفيد منها من هذا البيان الموجز لقضية الإصلاح في القرآن الكريم هي أن الكتاب العزيز قد أولى إهتماماً خاصاً بقضية الإصلاح وجعلها قضية دينية بل هي تكمن في جوهره، وذكر موارد عديدة للإصلاح الذي جعله هدفاً مهماً للأنبياء وبيّن لنا بعض التجارب الإصلاحية التي قادتها النبوة في التاريخ القديم، واعطى للإصلاح بُعداً تقوئياً ولا شك أن التقوى هي عنوان الدين، وأشرنا إلى أن المصلح الأكبر هو رسول الله (ص).

الإصلاحي الأعظم:

إن أعظم إصلاحي على مر التاريخ هو رسول الله (ص) الذي قاد أعظم مشروع للإصلاح عرفته البشرية والذي عمل على كافة جبهات الإصلاح من الإصلاح الديني إلى الإصلاح السياسي والإجتماعي والتربوي، إن عملية الإصلاح التي قادها رسول الله (ص) ترتبط بالرؤية الكونية الإلهية للوجود والحياة وبفلسفة الدين

(1) الحجرات : 10.

(2) الحجرات: 9.

للوجود الإنساني باعتبار كونه وجوداً مختاراً هادفاً إلى معرفة الله تعالى وإلى الحصول على الكمال والخير والسعادة وحاملاً للأمانة وخليفة الله على الأرض، ولذلك فقد كان الإصلاح الديني هدفاً أساسياً عمل عليه رسول الله (ص) من خلال مواجهته للشرك ولجميع المعتقدات الدينية الجاهلية التي كانت تكبل ذاك المجتمع وتمنعه من المضي قدماً في سبيل سعاده. إنَّ ذلك الفساد في الإعتقاد الديني الذي كان سائداً في تلك المرحلة الجاهلية كان هدفاً أساسياً لهجوم الإصلاح التوحيدي.

إنَّ المجتمع الجاهلي لم يكن مجتمعاً خالٍ من الدين بل كان مجتمعاً دينياً بالمعنى العام للكلمة ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِي﴾⁽¹⁾ ولكن هذا الدين الذي كانوا يعتقدون به مليئاً بالإعتقادات الفاسدة والمعتقدات الباطلة والتي كانت تترك اثرها على مجمل القناعات والمفاهيم التي كانوا يحملونها، ولا يُخفى الأثر الذي تتركه المنظومة الإعتقادية على المستوى الإجتماعي والسياسي والتربوي، إنَّ الإعتقاد بكون التأثير في عالم الأسباب والمسببات لله وحده بمعنى أنَّ الله تعالى هو الذي أوجدها وأعطاه القدرة على التأثير وهو قادر على سلب هذه القدرة وانه لا تُخفى عليه خافية وانه بالمؤمنين رؤوف رحيم، إنَّ هذا الإعتقاد يسهم في تكوين وعي تربوي سوف يظهر في كافة الأنماط السلوكية للفرد، بل ويسهم في تكوين قناعات عديدة على أكثر من مستوى سياسي واجتماعي. إنَّ تجربة نبوية ربما لا تنجح في الوصول إلى نتيجة مثبتة على مستوى الإصلاحات السياسية او الاقتصادية - كما حصل مع نبي الله شعيب لكن هذا لا يعني فشل عملية الإصلاح بالمطلق، لأنه حتى في حال تكذيب النبي ومواجهة التجربة النبوية الذي كان يؤدي عادة إلى إنزال العذاب

(1) الكافرون: 6.

الإلهي، فإن الإصلاح الديني قد يحقق أكثر من نجاح أو يثبت لنفسه موطأ قدم راسخ.

إنّ عملية الإصلاح الديني التي قادها رسول الله (ص) لم تقتصر على المرحلة المكية فقط بل تعم أيضاً المرحلة المدنية حيث أنّ رسوبات الدين الجاهلي والمعتقدات الجاهلية لم تكن قد زالت بالمرة وكان يمكن لها أن تهدد بالخطر رسالة رسول الله (ص) في حال سمحت الظروف لتلك المعتقدات أن تظهر على مسرح الأحداث بشكل أو آخر.

إنّ علياً (ع) عندما يصف رسول الله فإنه يذكر من جملة ما يذكره الله تعالى : "اظهر به (برسول الله) الشرائع المجهولة وقمع به البدع المدخولة وبين به الأحكام المفصولة"⁽¹⁾.

يجب أن يكون واضحاً إلى الآن ان عملية الإصلاح الديني لا تعني فقط انتاج مذهب ديني جديد بناءً على رؤية فكرية دينية استطاعت أن تتجاوز المذهب القديم من خلال اكتشاف اخطائه وضعفه وبطلان جملة من معتقداته او انجرافه، بل إنّ مفهوم الإصلاح الديني يتسع ليشمل حتى ظهور دين الإصلاح ليواجه ديناً آخر مليئاً بالمعتقدات الباطلة والخرافات والأساطير، كما حصل في المواجهة بين الدين الإسلامي والدين الجاهلي.

إنّ الإصلاح الديني الذي قام به رسول الله(ص) والذي عمل على تطبيق مفرداته استطاع ان يحقق نجاحاً كبيراً، وقد أراد رسول الله(ص) تكريس هذا الإصلاح وتفعيله أكثر بعد حياته المباركة صلوات الله عليه وآله فكان مشروع الإمامة المعصومة التي هي إمتداد للنبوّة على هذا

(1) نهج البلاغة، خ 161.

المستوى تولى كافة وظائف النبوة – سوى أنّ الوحي إنقطع بموت رسول الله(ص) – فكانت الإمامة حصناً منيعاً للإصلاح الديني وللمحافظة على الدين ولمقاومة الفساد المعرفي والكلامي والفقهي الذي قد يقوى بين حين وآخر مستفيداً من ظروف موضوعية وإمكانات سلطوية ليأخذ محلاً له في الصرح المعرفي الديني وهذا ما وضع مؤسسة الإمامة أمام مسؤوليات خطيرة وجسيمة إذ ربما ينتكس الإصلاح السياسي أو يتراجع الإصلاح الإجتماعي أو يفشل الإصلاح الإقتصادي ويترك ذلك أضراراً بالغة – وتجب مقاومة الفساد على كافة هذه المستويات – لكن يبقى شيء آخر له حساباته الخاصة وهي أنّه إذا إستحكم الفساد على المستوى المعرفي فإنّ ضرراً بالغاً لن يقف مداه عند حدود الظرف التاريخي الذي نشأ فيه ذلك الفساد المعرفي الديني بل سيتقدم في الزمن ما أخضر له عود أو قوي له جانب.

فضلاً عن أمر مهم وهو أنّه قد يصعب في بعض الظروف القيام بعملية اصلاح على المستوى السياسي والإجتماعي والإقتصادي، لكن يبقى من الأسهل القيام بعملية بإصلاح ديني أو متابعتها والحفاظ على مكتسباتها ولو في بعض الدوائر المحدودة التي لا تفتح أعين السلطة ولا تثيرها بشكل مباشر، صحيح أنّ هذا الإصلاح الديني – ولو كان في دوائر محددة – لا ينفصل عن الواقع السياسي والإجتماعي على المستوى النظري لكن عملياً يمكن الفصل بينهما بل قد يصبح ذلك مطلوباً وضرورياً إذا كانت تلك الظروف السياسية والإجتماعية تقتضي ذلك، وعندها يكون من الصحيح إبقاء العمل الإصلاحي في إطار معرفي ديني ومتابعته بشكل محدود وهادئ حفاظاً على العملية الإصلاحية وديمومتها إذ أنّ الظروف والشروط المطلوبة لنقل هذه العملية إلى الميدان الإجتماعي

قد لا تكون قد نضجت بعد، مما يهدد مجمل المشروع الإصلاحى بالخطر.

واستطيع أن أقول بشكل موجز أن مؤسسة الإمامة قد تولت مهمة الإصلاح الدينى وإستطاعت ايضاً أن تحقق أكثر من إنجاز على هذا المستوى رغم صعوبة الظروف التي عملت فيها ودقة المرحلة التي مرّت فيها.

الإصلاح الدينى في تجربة الإمام علي (ع):

بعد وفاة رسول الله (ص) بدأت تجربة دولة الخلافة بما تحمله تلك التجربة من إمكانية للخطأ على أكثر من مستوى – ديني وغيره من خلال تلك الرؤية التي كانت تحملها أنه للقيادة السياسية صلاحياتها على المستوى الدينى، وهذه الرؤية كان قد مارسها رسول الله (ص) من خلال قيادته للأمة على كافة المستويات الدينية بما يعنيه مفهوم الدينى من شمول وسعة لكل مجال الحياة على المستوى الإعتقادي والإجتماعي والعملية بما يخدم هدايتها دنيوياً واخروياً.

وقد رأينا تجربة رسول الله(ص) أن تصديه لم يكن مقتصرأ على جانب دون آخر فلم يكن يتصدى للدينى المعرفي ويهمل الدينى العملي أو يتصدى للدينى العملي ويهمل الدينى المعرفي بل كان تصديه لكليهما، فهذه الرؤية التي كانت قد استحكمت حتى ذلك الحين قد عملت الخلافة على تطبيقها والإستفادة منها في إدارتها السياسية للدولة والمجتمع.

إنّ هذا الإقتران بين السياسي والدينى المعرفي قد أدى في بعض الأحيان إلى تبني السلطة لبعض المواقف الدينية التي لم تكن مورد قبول من الإمام علي(ع) بحسب رؤيته التي ورثها عن رسول الله(ص) ذلك

الإرث العلمي الذي حمله إياه الرسول(ص) قبل وفاته والذي كان محل إعراف من الكثيرين.

وجدير بالإشارة إنَّ الحديث عن الإصلاح الديني في تجربة الإمام علي(ع) يحتاج منهجياً للحديث عن مكانته العملية لسبب بسيط جداً وهو أنَّه إذا ثبت لدينا أنَّ رسول الله(ص) قد جعل من علي(ع) المرجعية المعرفية الدينية للمسلمين ليكون الناطق بإسم النص الديني ويكون قوله الفصل على المستوى المعرفي، عندها سيكون علي(ع) هو المقياس للإصلاح الديني، فما قبله (ع) سيكون صحيحاً دينياً وما رفضه سيكون باطلاً على المستوى الديني.

يعقد الشيخ المفيد في كتابه الإرشاد فصلاً تحت عنوان "ومن ذلك ما جاء في فضله(ع) على الكافة في العلم" وينقل بعض الروايات فيقول: " .. عن ابن عباس قال: قال رسول الله(ص) علي ابن ابي طالب أعلم أمتي وأقضاهم فيما اختلفوا فيه من بعدي.."

عن حمزة بن أبي سعيد الخدري عن أبيه قال: سمعت رسول الله(ص) يقول: أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد العلم فليقتبسه من علي.

عن عبد الله بن مسعود قال: إستدعى رسول الله(ص) علياً فخلا به، فلما خرج إلينا سأله ما الذي عهد إليك؟ فقال: علمني رسول الله ألف باب من العلم، فتح لي كل باب ألف باب.

عن الأصبع بن نباتة قال: لما بويع أمير المؤمنين علي ابن ابي طالب بالخلافة خرج إلى المسجد معتماً بعمامة رسول الله(ص) لابساً برديه، فصعد المنبر فحمد الله واثنى عليه ووعظ وأذر ، ثم جلس متمكناً

وشبك بين أصابعه ووضعها أسفل سرته ثم قال:

يا معشر الناس سلوني قبل أن تفقدوني، سلوني فإني عندي علم الأولين والآخرين اما- والله - لو ثني لي الوساد لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم وأهل الزبور بزبورهم وأهل القرآن بقرآنهم، حتى يُزهر كل كتاب من هذه الكتب ويقول: يا ربَّ إنَّ علياً قضى بقضائك والله أني أعلمُ بالقرآن وتأويله من كلِّ مدع كلمة، ولولا آية في كتاب الله لأخبرتكم بما يكون إلى يوم القيامة - ثمَّ قال- سلوني قبل أن تفقدوني فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة لو سألتُموني عن آية لأخبرتكم بوقت نزولها وفي من نزلت وانبأتكم بناسخها من منسوخها، وخاصها من عامها ومحكمها من متشابهها مكياها من مدنيها، والله ما فئة إلا وأنا أعرف قائدتها وسائقها وناعقها إلى يوم القيامة⁽¹⁾ ويختتم الشيخ المفيد بقوله: في أمثال هذه الأخبار مما يطول به الكتاب.

وهنا يمكن القول أنّ هذا التمييز العلمي للإمام (ص) قد كان من أجل حراسة الدين وحمايته من تلك العوامل التي يمكن أن تؤدي إلى تبديل بعض أحكامه ومفاهيمه. ولذلك عمِل (ع) من أجل الحفاظ على الدين نقياً من أي إنحراف وفي هذا يخاطبه الإمام علي بن محمد النقي (ع) في تلك الزيارة التي زار بها أمير (ع) يوم الغدير فيقول:

"..مولاي بك ظهر الحق وقد نبذه الخلق وأوضحت السنن بعد الدروس والطمس.."⁽²⁾.

(1) ج 1 ، صص 33-35.

(2) عباس القمي، مفاتيح الجنان، ص 463.

وبالعودة إلى تلك الإشكالية فإننا نجد أن السيد مرتضى العسكري قد أشار إليها وإلى تداعياتها على مستوى المعرفة الدينية فبعد أن يذكر نماذج من إجتهدات الصحابة يقول: "رأينا فيما سبق إجتهدات للصحابة والتابعين والخلفاء منهم خاصة في أحكام إسلامية عملوا فيها برأيهم وإجتهدهم في مقابل نصوص من كتاب الله وسنة رسوله لما إعتقدوا فيها مصلحة لسياسة الحكم أو غير ذلك.." (1).

ويذكر السيد العسكري موارد الإجتهد في قبال النص (2) وكذلك فعل الإمام شرف الدين في كتاب " الإجتهد في مقابل النص " حيث يعدد موارد إجتهد الخلفاء وغيرهم ومن تلك الموارد ما يرتبط بنحلة الزهراء فدكاً (3) وهذا ما ذكره امير المؤمنين (ع) في كتابه الذي أرسله إلى عامله على البصرة عثمان بن حنيف حيث يقول: "بلى كانت في ايدينا فدك من كل ما أظلمت السماء فشحت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس قوم آخرين ونعم الحكم الله..".

ومن تلك الموارد ما يرتبط بقضية التوريث حيث حرمت الزهراء (ع) من إرث أبيها رسول الله (ص) وقد قالت: فيما قالت صلوات الله وسلامه عليها محتجة على غضبها حقها:

".. أعلى عمدتكم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم، إذ يقول: ﴿وورث سليمان داود﴾، وقال فيما اقتص من خبر زكريا: ﴿فهب لي من

(1) معالم المدرستين، ط 5، مج 2، ص 381.

(2) م ن، صص 74 – 299.

(3) صص 123 - 123.

لذلك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب واجعل رب رضيعاً ﴿ وقال ﴿ واولو الأرحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله ﴿ وقال ﴿ يوصيكم في اولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ﴿ وقال: ﴿ كتب عليكم اذا حضر احدكم الموت ان ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين ﴿ ثم قالت: " اخصمكم الله بآية اخرج بها أبي؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي؟ أم تقولون أهل ملتين لا يتوارثان؟.. "(1).

وهنا قد يُطرح هذا السؤال أنه ما هو التفسير النظري لمخالفة سلطة الخلافة للنص؟ وما هو الدافع الذي دفع الخلفاء للإجتهد في مقابل النص (نص الله ورسوله)؟

هنا نستطيع القول أنّ تصدي الخلفاء للسلطة السياسية والاجتماعية قد فرض على سلطة الخلافة مسؤوليات عديدة على مستوى الممارسة الشرعية والمهمات المعرفية الدينية والتي كانت مناطة بالسلطة العليا للدولة الإسلامية، وهنا كان أمام سلطة الخلافة أحد خيارين: أما أن تلجأ في كل شاردة وواردة تخفى عليها إلى مدرسة الإمامة متمثلة برمزها آنذاك أمير المؤمنين علي (ع) مع ما يعني ذلك من الاعتراف بمرجعيته على المستوى الديني المعرفي وما يمكن أن يكون لذلك من دلالات ونتائج على المستوى السياسي كانت السلطة تحذر منها أشد ما يكون من حذر، أو تتصدى للمعرفية الدينية محاولة الإستغناء عن مدرسة الإمامة وما يمكن أن يستتبعه ذلك من أخطاء على مستوى الممارسة الدينية وتقديم

(1)صص 115-122.

مع أنّ علياً(ع) عندما لمس ذلك الإصرار على التمسك بالحكم مهما كانت النتائج ولم يكن بالإمكان تغيير الوضع السائد بالعمل المسلح " فطفقت ارتأي بين أصول بيدِ جذاء أو أصبر على طخية عمياء.. فرأيت أن الصبر على هاتا أحجى"⁽¹⁾، فقد إختار نهجاً سياسياً يقوم على أساس المسالمة شرط أت تسلم أمور المسلمين وأن يُحافظ على سلامة التجربة الإسلامية وهذا من خلال خطابه السياسي الذي قال فيه: " لأسالمن ما سلمت امور المسلمين، ولم يكن فيها جور إلا عليّ خاصة"، اي أنّه كان مستعداً أن يضحى بحقوقه الشخصية شريطة أن تبقى السلطة تحتذي حذو الرسول(ص) وأن تستقي التجربة الإسلامية أحكامها من سنة الله ورسوله، لكن يما أن سلطة الخلافة كانت تعطي أهمية كبيرة للمحاذير المُشار إليها آنفاً وكانت تخشى من دلالات البروز المعرفي الديني لمدرسة الإمامة، فقد تجنبت ذاك الخيار وعملت على استبعاده إلى حدٍ كبير، وخصوصاً فيما يرتبط بذلك الجانب من النص الديني الذي له ارتباطه الوثيق بالشأن السياسي، فقد كانت المصلحة السياسية تقتضي عدم الأخذ بذلك النص، وإلا فإنّ الأخذ به ربما يكون له عواقب غير محمودة في حسابات السلطة، فضلاً عن مسألة جديرة بالإلتفات وهي أنّ سنة رسول الله(ص) بالتحديد كانت تختزن كماً كبيراً من الروايات التي تنص على ولاية أمير المؤمنين(ع) وخلافته السياسية مما وضع سلطات الخلافة أمام مشكلة كبيرة، إذ ماذا تفعل بتلك الروايات التي تنزع المشروعية الدينية عنها؟

(1) نهج البلاغة، الخطبة الثالثة المعروفة بالشقشقية.

إنَّ سلطة الخلافة قد واجهت أزمة حقيقية بسبب ذلك الإرث الروائي الذي تركه رسول الله(ص) إذ أنَّها إما أن تترك لذلك الإرث مداه وهو يعني إنتشار تلك الأحاديث التي لا تخدم المصلح السياسية للخلافة، أو أن تعمل على إتخاذ اجراءات قاسية بحق ذلك الإرث الروائي مع ما يمكن أن يترك ذلك من تداعيات في المجتمع الإسلامي قد لا تكون لصالح السلطة أو بالأحرى ليست لصالح التجربة الدينية، لكن كان لابد من موقف فارتأت السلطة الحفاظ على مشروعيتها السياسية فأقدمت على إحراق احاديث رسول الله (ص) ومنع كتابة العلم عنه (ص)⁽¹⁾ بل عملت على جمع أعلام الحديث حتى لا يذيعوا الحديث في الأمصار الإسلامية، ولا شك أن ذلك قد أدى إلى كثير من الأضرار بالمعرفة الدينية، يقول السيد شرف الدين (قده) في هذا الموضوع:

"لو كانت مدونة من ذلك العصر في كتاب تقدسه الأمة لارتج على الكاذبين باب الوضع، وحيث فاتها ذلك كثرت الكذابة على النبي(ص) ولعبت في الحديث ايدي السياسة، وعاثت به السنة الدعاية الكاذبة ولا سيما على عهد معاوية وفتنه الباغية، حيث سادت فوضى الدجاجيل وراج سوق الأباطيل"⁽²⁾.

وامام هذه الأوضاع كان لا بد للإمام علي (ع) من أن يعمل على حفظ تراث رسول الله(ص) وحماية سنته من الضياع وان يبتدر إلى مواجهة موارد الإجتهد في قبال النص حتى لا تتحول مخالفة النص إلى نص ثانٍ، وبالتالي فإنَّ علياً قد كان من رواد حركة الإصلاح الديني التي بدأها رسول الله(ص) واناط مهمتها به وبالأئمة المعصومين (ع) من أجل

(1) (2) الإجتهد في مقابل النص، صص 164-167.

أن يصل الدين نقياً خالصاً من أي إنحراف أو تشويه، وقد تولاهما الأئمة (ع) وعملوا جاهدين على إيصال تراث رسول الله(ص) إلى الأمة وذلك من خلال إعداد فئة من العلماء الذين يضعون على عاتقهم تلك المهمة الثقيلة وقد حرصوا على حماية الدين وحفظه حتى لو أدى الأمر إلى تقديم مهجهم وارواحهم وهذا ما حصل مع سيدي شباب أهل الجنة الحسن والحسين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

الإصلاح الديني في تجربة الإمام الحسين (ع):

الإصلاح في تجربة الإمام الحسين (ع): إنَّ كثيرين قرأوا تجربة الإمام الحسين (ع) في مجالاتها كافة والتي جنبتها السياسة وخصوصاً قضية الصلح مع معاوية، وكانت هذه القراءات تفضي إلى نتائج متعددة، نعم قد يصح أن نقرأ حدث الصلح من زوايا متعددة وهذا سوف يؤدي تلقائياً إلى نتائج مختلفة، لكن هذه النتيجة تبقى نتيجة جزئية ولا يصح تقديمها كنتيجة كلية وشاملة، إن الخطأ الذي يقع فيه البعض أنه يقرأ التاريخ بنظرة اقتصادية - مثلاً - فيصبح مقياس النجاح والفشل، النصر والهزيمة، الربح والخسارة هو الحصيلة الاقتصادية وربما يأتي آخر يلبس نظارة سياسية - بمعنى المصلحة الآنية للفعل السياسي - وبالتالي يصبح المقياس هو الحصيلة السياسية بذاك المعنى، وهكذا.

لكن عندما نأتي إلى تاريخ الإمام المعصوم (ع) يجب هنا أن نقرأ التاريخ باعتبار كونه مسرحاً لأهداف الإمامة وفعلها وميداناً سعت فيه لحمل مسؤولياتها كاملة، وهذا يقتضي البحث في وظائف الإمامة وفلسفتها.

إنَّ فلسفة وجود النبي(ص) هي فلسفة وجود الإمام سوى أنَّ الأمام ليس

بصاحب رسالة ولا ينزل عليه الوحي، إن الإمام هو الهادي للبشرية والمبين لأحكام الدين والحفاظ له من أية عملية تشويه أو تحريف فضلاً عن مهماته على المستوى السياسي والاجتماعي، وعليه إذا أردنا أن نقرأ المعصوم في التاريخ يجب ألا نغفل الإمامة في جانبها الديني ونقصر البحث على الإمامة في جانبها السياسي، بل تجب قراءة الحصيلة التاريخية على ضوء جميع أهداف الإمامة ووظائفها وبالتالي ربما لا تكون هناك حصيلة على مستوى العمل السياسي الظرفي والمحدود لكن قد تكون هناك نتائج مهمة على المستوى المعرفي الديني وبقية وظائف الإمامة، ما يعني أنّ حصيلة اساسية يجب أن ينظر اليها بكثير من الإهتمام والعناية. صحيح أنّ صلح الإمام الحسن (ع) قد أدى إلى خسارة السلطة لكن الإمام استطاع من خلال فعل الصلح أن يوجه ضربة قاسية لمصادقية النهج السياسي الأموي وأن يظهر عدم اعتناء العمل السياسي الأموي بالدين وضرره للقيم الدينية بعرض الحائط.

إنّ إظهار ابتعاد الحزب الأموي عن الدين كان هدفاً اساسياً للأئمة، وإن ابراز لا دينية السلطة الأموية كان غاية مهمة لهم(ع) لسبب بسيط وهو ان تلطي تلك السلطة بالدين لتبرير افعالها لن يكون عندها مجدياً ومحاولة تلك السلطة تكوين مدرسة ثقافية أو وعي ثقافي بإسم الدين سوف يكون محكوماً بالفشل، وبالتالي فإن كشف زيف المشروع الأموي وإظهاره على حقيقته أنّه مشروع سلطوي دنيوي يأخذ من الدين ما يراه في مصلحته ويرفض منه ما يعارض تلك المصلحة، إنّ هذا الامر هو إنجاز اساسي ومهم، اعود لأقول لا لأن نتيجته سياسية فحسب، بل لأنّ له نتائج مهمة على المستوى المعرفي والديني فيما يرتبط بوصول الدين إلى الأجيال اللاحقة خالٍ من أي تشويه أو تحريف بفعل عبث السلطة...

الإصلاح الديني في تجربة الثورة الحسينية:

لا شك أنّ كل ثورة لها مجموعة من الأهداف التقريبية والبعيدة التي تسعى من خلال عملها الثوري إلى الوصول إليها وتحقيقها، وثورة الإمام الحسين (ع) ليست خارجة في واقعها وفي تخطيط قاداتها عن قواعد العمل الثوري، وبالتالي سوف يطرح هذا السؤال أنّه ما هو الهدف أو الأهداف التي سعت من أجلها حركة الإمام الحسين (ع) والتي يمكن من خلالها الحكم أنّ هذه الثورة نجحت أم لا، وإذا نجحت كم هو مقدار النجاح الذي استطاعت أن تحزره.. إذاً توجد مجموعة من الأسئلة لكن السؤال الأساسي إنما هو عن هدف أو أهداف هذه الثورة؟

يمكن القول أنه يوجد من يرى أن للثورة هدفاً واحداً سعت إليه وإن كان الاختلاف قد وقع في تحديد هذا الهدف الواحد هل هو الوصول إلى السلطة أم هو إيقاظ إرادة الأمة وتحريكها أم نزع المشروعية السياسية والدينية عنها أم هو فضح السلطة الحاكمة من خلال ما ارتكبه في يوم عاشوراء وما بعده...؟

وقد نصل إلى هذه النتيجة أنّه ليس من الصحيح الإقتصار على هدف واحد وإنما توجد مجموعة من الأهداف التي قصدتها استراتيجية الثورة والتي عملت على تحقيقها، وهي تشكل مجتمعة مشروعاً متكاملًا ارادت قيادة الثورة انجازه.

وهنا نحتاج بداية إلى الحديث عن كل من تلك الأهداف على حدة لنرى بعدها إن مشروع الثورة هل كان مرتبطاً بأحدها فقط أم كان أكثر من هدف منظوراً في ذاك المشروع.

1. الهدف ايقاظ ارادة الأمة:

يرى من يعتقد أن الثورة الحسينية كانت تقصد هذا الهدف أن الإمام الحسين(ع) كان يعلم انه سوف يستشهد وأن هذا العلم قد كان قبل خروجه، سوى انه كان يريد ان تكون شهادته حدثاً مدوياً يهز ضمير الأمة ويوقظ فيها ارادتها التي ضعفت حتى وصلت إلى مرحلة انها اعتادت على الظلم وألفت المنكر، فهي كانت تدرك انحراف بني امية وتعلم بمنكراتهم سوى انها فقدت ارادة التعبير او ضعفت هذه الإرادة إلى مستوى لو يعد يرتجى منها ان تبادر للقيام بعمل تغييرى يقضي على انحراف السلطة الأموية ويعالج الفساد القائم.

وقد تبني هذا الرأي السيد محمد باقر الصدر حيث نقل آية الله السيد كاظم الحائري رأيه في كتاب الإمامة وقيادة المجتمع حيث يقول:

" اما استاذنا السيد الشهيد (رض) فإنه كان يرى أن الأمة كانت مصابة بمرض الشك في زمن معاوية بن أبي سفيان، وقد عالجه الإمام الحسن بالصلح مع معاوية اما في زمن يزيد فإن الأمة برأت من ذلك المرض، وكانت تعرف الحق وأهله، وتعرف الباطل وأهله، ولكنها أصيبت بمرض آخر هو مرض فقدان الإرادة أو فقدان الضمير، وهذا المرض لم يكن له علاج لكي تبرأ الأمة سوى أن يقدم الإمام الحسين(ع) على التضحية بنفسه وأهل بيته وأصحابه لكي يهز بها الضمائر الميتة ويبعث الشجاعة والإرادة فيها، وهذا ما حدث فعلاً وحصلت تبعاً لذلك النتائج المتوقعة"⁽¹⁾.

2. الهدف الوصول إلى الحكم:

يذهب البعض إلى هدف الإمام الحسين (ع) إنما كان الوصول إلى الحكم وإقامة الحكومة الإسلامية فهو لم يكن يريد الإستشهاد، بل لم يكن يعلم انه سوف يستشهد وهو إنما ذهب إلى الكوفة لأن المعطيات الإجتماعية والسياسية كانت توحيان ظروف الثورة قد وصلت فيها إلى مرحلة النضج وأنه لم يعد إلا إعلان هذه الثورة وقيادتها إلى شاطئ النصر والذي حصل أن بعض المعطيات قد طرأت وأن ظروفها قد استجدت مما جعل الموازين العسكرية تنقلب لصالح السلطة الأموية وهذا ما أدى إلى عدم وصول الثورة إلى هدفها الذي سعت من أجله.

بل إن بعض انصار هذا الرأي يذهبون إلى أن شهادة الإمام الحسين(ع) كانت خسارة كبيرة للإسلام وأن الإمام الحسين(ع) لو بقي حياً لاستفاد منه الإسلام أكثر بكثير من استفادته منه بعد شهادته.

وينقل السيد الحائري عن الكاتب نجف آبادي في كتابه "شهيد جاويد" قوله: " ما معنى اعتبار قتل الحسين(ع) انتصاراً للإسلام.. هل ان قتله سوف يسبب هداية الناس أم أن وجوده حياً بين الناس هو الذي يؤدي إلى هدايتهم.. وهل أن مقتل الإمام الحسين قد أدى إلى فضح يزيد بن معاوية وهو المضحوب بشرب الخمر والفجور والفسوق.. وهل ان مقتل الحسين قد ادى الى قوة الشيعة وحركاتهم الثائرة كحركة التوابين وحركة المختار الثقفي وحركة سليمان بن صرد الخزاعي وهي جميعها قد أجهضت وقُتِل قادتها ولم تتحقق جميعاً اهدافها..؟" (1).

(1) م ن، ص178.

3. الهدف نزع المشروعية السياسية والدينية عن السلطة الأموية:

يرى البعض ان الهدف من ثورة الإمام الحسين(ع) لم يكن الوصول إلى الحكم لأنه كان يعلم بنتيجة تحركه وأنه سوف يستشهد في نهاية المطاف وبالتالي فإن الوصول إلى الحكم لم يكن هدفاً واقعياً للتحرك الثوري، ولا شك أنه يجب الحكم على هذه الثورة على ضوء الهدف الذي وضعتة نصب عينيها، فإن وصلت إليه تكون هذه الثورة قد حققت نجاحاً وإن لم تصل إليه تكون قد فشلت لأنها لم تحقق الأهداف او الهدف الذي أرادت.

وما يجب قوله إن هذف الثورة أمر آخر غير ما ذكر إلا وهو نزع المشروعية السياسية والدينية عن بني أمية، فالإمام الحسين(ع) كان معلوماً انه ابن بنت رسول الله (ص) وقد مدحه في موارد عديدة وانه قال بشأنه انه سيد شباب أهل الجنة وانه إمام قام أو قعد.. فالأمة كانت تعلم المكانة الدينية والاجتماعية الكبيرة التي كانت للإمام الحسين وكانت تعلم عظمة منزلته عند الله وعند رسوله(ص) وعليه فإن إقدام السلطة الأموية على قتله وقتل أهل بيته واصحابه وخصوصاً بالطريقة التي فعلت سوف يفقد تلك السلطة آخر ورقة توت كانت تستر بها فسادها وانحرافها وسوف يحطم واجهتها الدينية.

إن إقدام السلطة على ارتكاب تلك الجريمة النكراء بحق عترة الرسول (ص) سوف يؤدي إلى نزع المشروعية السياسية والدينية من السلطة الأموية، بمعنى ان تلك المشروعية السياسية التي كانت السلطة تنظر لها وتسعى إليها من خلال اخذ البيعة من وجوه المجتمع الإسلامي آنذاك إن هذه المشروعية سوف تتحطم من خلال حدث الشهادة ولا يمكن ان تنجبر ابدأ بعد مقتل الإمام الحسين(ع) طبعاً ليس المقصود ان تلك السلطة كانت تمتلك مشروعيتها

السياسية قبل شهادة الإمام الحسين (ع) وانها فقدت تلك المشروعية بعد شهادته، بل المقصود ان حدث الشهادة قد كشف للأمة وبشكل واضح وسافر بطلان المشروعية السياسية لتلك السلطة وعدم جدوائية كل تلك المساعي التي ارادت من خلالها ان تعطي لنفسها مشروعية سياسية في الأمة.

فضلاً عن ان السلطة الأموية قد عملت على تكوين مدرسة فكرية لتعطي لعملها السياسي مشروعيته الدينية باعتبار ان المشروعية السياسية في تلك الفترة كانت تأتي من خلال المشروعية الدينية، وقد قطعت اشواطاً في بنائها لتلك المدرسة من خلال وضع بعض الأحاديث في مدح معاوية و ذم أمير المؤمنين(ع) ولا شك انه من المعروف ان هذه القضية ليست قضية شخصية باعتبار ان ذم امير المؤمنين(ع) ولعنه على المنابر إنما كان تعبيراً عن مواجهة السلطة ومدرستها لمدرسته الفكرية، ويدل على سعي دؤوب من تلك السلطة لتحطيم الصورة المعنوية والمرجعية الدينية لأهل البيت (ع) بما يعني ذلك ايضاً من عزلهم على مستوى الأمة وإيجاد الشرخ بينها وبينهم.

وقد عملت السلطة الأموية ايضاً على نشر بعض المذاهب الفكرية والترويج لها من قبيل مذهب الإرجاء والجبر اللذين يساعدان تلك السلطة على تكوين منظومة اعتقادية تبرر كل تلك الأعمال التي كان الحكام الأمويون يقومون بها حتى لو كانت مخالفة للإسلام والدين.

وعليه فإن شهادة الإمام الحسين(ع) سوف توجه ضربة قاضية لتلك المدرسة الفكرية ومفاهيمها بحيث يتحول المشروع الأموي إلى مجرد قوة تغلب غير مقبولة شعبياً ودينياً واجتماعياً، وبالتالي فإن اي تغيير لاحقاً في الموازين العسكرية سوف يعني زوال المشروع الأموي بشكل كامل.

ترى هذه الرؤية ان الخطر الدايم من المشروع الأموي آنذاك هو ان يترك ذلك المشروع ارثاً فكرياً ودينياً يؤسس لحالة من الانحراف في جسم الأمة على المستوى الفكري والمعرفي قد يبدأ في تلك الفترة لكن ليس من المعلوم متى ينتهي او إن كان سينتهي لاحقاً وكم سيترك من الويلات والمصائب.

إن الخطورة كانت تتمثل في أن تقدم التجربة الأموية على اساس انها نموذج للتجربة الإسلامية على مستوى السياسة والإجتماع والإقتصاد... بحيث تصبح تلك التجربة أحد ابواب فهم الإسلام وتدرج على اساس انها صفحة من صفحات كتابه.

وإن ثورة الإمام الحسين(ع) كانت تهدف إلى تعرية السلطة الأموية وفضحها والقضاء على اية امكانية للقول بأنها كانت تمثل الإسلام او انها تقدم النموذج الإسلامي في الحكم مما سوف يسبب لاحقاً في اخذ الكثيرين لصورة مشوهة عن الإسلام تؤدي إلى ابتعادهم عن الدين واخذ موقف سلبي منه.

ان الكلام عن ان السلطة الأموية كانت مفضوحة من خلال سلوك ولاتها وقادتها وان انحرافها قد كان واضحاً لجميع الأمة وان مخالفتهم للإسلام والدين كانت بينة للقاصي والداني، ليس كلاماً صحيحاً ومقبولاً، لان السلطة كانت تسعى لاستغلال الدين من اجل تبرير افعالها، ولذا عمدت الى شراء بعض الشخصيات العلمية ممن يباع ويشترى وسخرت وسائلها الإعلامية من اجل تحسين صورتها وتلميع مظهرها من خلال استخدامها لمنطق تبريري وتسويلي يُخفي حقيقة ما يجري.. وبالتالي كان من الضروري القيام بعمل

استثنائي ووقوع حدث كبير كشهادة الإمام الحسين (ع) يؤدي بشكل مباشر الى تحطيم تلك السلطة معنوياً ودينياً وشعبياً وتؤدي تداعياتها إلى اضعافها تمهيداً لسقوطها ولو بعد حين من الزمن.

ان من البساطة بمكان ان نقول ان السلطة الأموية كانت مفضوحة على المستوى الديني والسياسي والاجتماعي، ان الوقائع التاريخية تثبت لنا أن المشروع الأموي كان يعمل بطريقة اصبح فيها وجود الدين مهدداً وانه قد قطع اشواطاً في تنفيذه لمخططه وفي سعيه لمآربه، وكان من الضروري لفعل شهادة ان يحصل ولدم كدم الإمام الحسين(ع) ان يسقط ولمأساة كمأساة كربلاء ان تقع بما لا يعني ذلك من التأسيس لعملية اصلاح وفعل ثورة لن يتوقفاً إلا بالوصول إلى الأهداف المرجوة والتي منها القضاء على المشروع الأموي وكنس كل رسوباته.

إن ذلك الحدث التاريخي الذي حصل يثبت – من ناحية تاريخية- ان مؤسسة الإمامة كانت بعد رسول الله(ص) تقوم بوظائف النبوة، واعني بها بالتحديد تبليغ الدين وتبيينه وحمايته من اي محاولة لاستغلاله او تحريفه.

لقد كان الإهتمام منصباً على حراسة الدين وهداية المجتمع، ولذا كان من الضروري امام ذلك الجمود الذي اصاب حياة الأمة وامام ذلك الوهن الذي نال من قدرتها على التغيير والاصلاح، ان تبادر مؤسسة الإمامة إلى القيام بفعل ما يكسر ذلك الجمود الذي اصبح يهدد وعي الأمة بفعل الفساد الأموي وادوات السلطة الإعلامية، ويبدل ذلك الوهن إلى قوة وعزيمة، فكان المشروع الإصلاحى للإمام الحسين(ع) الذي تمثل اصلاحاً دينياً وفكرياً وسياسياً مهد الأرضية لزوال السلطة وفسادها.

هل كان الإمام الحسين (ع) يعلم بشهادته؟

بعد ان استعرضنا بشكل مجمل الأهداف التي يمكن ان تكون منظورة للثورة الحسينية نعود لطرح هذا السؤال أنه ما هو الهدف او الأهداف التي سعى من أجلها الإمام الحسين(ع) والتي اقتضت تقديم كل تلك التضحيات في سبيلها؟

اعتقد انه يوجد هنا سؤال اساسي يتكفل بتحديد طبيعة الجواب على السؤال الأول وهو هل كان الإمام الحسين (ع) يعلم قبل خروجه بشهادته ام لم يكن بذلك؟

إن الجواب يتطلب العودة إلى كلامه (ع) وبياناته ورسائله قبل خروجه أو بالتحديد أكثر قبل تغير الموازين العسكرية بشكل كبير لصالح السلطة الأموية لئلا يرى انه هل كان يظهر من كلامه(ع) انه كان يعلم بنتيجة تحركه الثوري ام لا؟

أن من الواضح من خلال أكثر من كلام للإمام الحسين (ع) انه كان يعلم بما سوف يحصل له من شهادته في كربلاء:

1. قال عليه السلام لعمر الأطراف ابن امير المؤمنين (ع) عندما قال له حدثني اخي الحسن انك تقتل : " حدثني ابي رسول الله(ص) أخبره بقتله وبقتلي، وان تربته ستكون بالقرب من تربيتي اتظن انك علمت ما لم اعلمه؟ والله لا اعطي الدنيا من نفسي ابداً.."(1).

(1) صفحات في تاريخ كربلاء، ص 217 (عن مقتل الخوارزمي).

2. حين علمت أم سلمة (رضي الله عنها) انه سيخرج من المدينة قالت له: يا بني لا تحزنني بخروجك إلى العراق فإني سمعت جدك رسول الله (ص) يقول: يقتل ولدي الحسين في أرض العراق في مكان يقال له كربلاء، فأجابها (ع):

"يا أماه ..وانا اعلم اني مقتول مذبحاً وعدواناً، وقد شاء عز وجل ان يرى حرمي ورهطي مشردين واطفالي مذبحين مأسورين مقيدين وهم يستغيثون فلا يجدون ناصرًا"⁽¹⁾.

3. كتب عليه السلام في كتابه الذي ارسله إلى بني هاشم:

"بسم الله الرحمن الرحيم من الحسين بن علي إلى محمد بن علي ومن قبله من بني هاشم، اما بعد فإن من لحق بي منكم استشهد، ومن تخلف لم يدرك الفتح والسلام"⁽²⁾.

4. قال له اخوه محمد بن الحنفية: الم تعدني بالنظر فيما سألتك؟ وقد كان سأله ان لا يخرج، فأجابه الحسين (ع) "بلى، ولكن بعدما فارقتك اتاني رسول الله (ص) وقال يا حسين اخرج فإن الله تعالى شاء ان يراك قتيلاً..وان يراهن سبايا"⁽³⁾.

وهناك العديد من النصوص الأخرى التي تدل على انه عليه السلام كان على علم بما سيصير إليه لكنه صمم على الخروج لأهداف لا ترتبط ببقائه حياً، إنما تترتب على شهادته وعلى حصول تلك المأساة في كربلاء.

(1) م ن.

(2) م ن، ص 219.

(3) م ن، ص 221.

تحليل لأهداف الثورة:

وإذا عدنا إلى تلك الأهداف لمناقشتها على ضوء هذا المعطى التاريخي فلا بد من القول عندها انه لا يبقى من مبرر للحديث عن الهدف الثاني الذي هو الوصول إلى الحكم وإقامة الحكومة الإسلامية لأن هذا الهدف يتوقف على بقاء الإمام الحسين(ع) حياً، فإذا كان الإمام يعلم مسبقاً بشهادته فهذا يعني ان الوصول إلى الحكم لم يكن هدفاً حقيقياً للإمام الحسين (ع) وإن كان بحسب الظاهر هو امر مشروع بل ويعد من اجل اقامة العدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإصلاح في المجتمع وهداية الناس.

وعليه فإنَّ الإمام الحسن (ع) بحسب الظاهر كان يسعى إلى الحكم لا من اجل الحكم باعتباره مكسباً دنيوياً بل باعتبار الجانب الوظيفي الإصلاحى والإجتماعى الذى يرتبط بالحكم وإن كان يعلم واقعاً بعدم وصوله إليه ولعل هذا هو مقصود الإمام الخميني (قده) عندما يقول عن الإمام الحسين (ع): " لم يكن يريد ان يجرب ويجازف في تحركه ليعلم هل ينجح ام لا، بل انه كان قد تحرك ليتسلم زمام الحكومة، وهذا مبعث فخر له ومدعاة افتخار والذين يتصورون ان سيد الشهداء (ع) لم ينهض لأخذ زمام الحكم فهم مخطئون، فسيد الشهداء (ع) انما جاء وخرج مع صحبه لتسلم الحكم لأن الحكومة يجب ان تكون لأمثال سيد الشهداء (ع)..."(1).

(1) نهضة عاشوراء، ص 48.

وعلى ما تقدم إذا لم يكن الإمساك بالحكم هدفاً واقعياً للإمام الحسين(ع) لعلمه مسبقاً بعدم تحقق ذلك فلا بد أن يكون الهدف الواقعي أمراً آخر فهل استنهاض ارادة الأمة ام انه نزع المشروعات السياسية والدينية عن السلطة الأموية والمشروع الأموي تمهيداً لإسقاط السلطة نفسها؟

لا شك أنّ هذين الهدفين يشتركان في بعض الأمور التي يمكن ان تسهم في دمجها وتوحيدهما فإستنهاض ارادة الأمة يعني تحريك ارادتها من اجل الإطاحة بالسلطة الأموية والقضاء على ذلك الفساد السياسي والإجتماعي والإقتصادي، وكذلك بالنسبة إلى إسقاط المشروعات السياسية والدينية للسلطة الأموية وتحطيم المدرسة الفكرية للمشروع الأموي فإنّ هذا العمل يهدف من ضمن ما يهدف إليه إلى اسقاط السلطة الأموية التي تمثل العمود الفقري لذاك المشروع وبالتالي فإنّ إسقاطها يعني سقوط المشروع الأموي بكامله وانتهاء كل توابعه لسبب بسيط جداً وهو ان قوة المشروع الأموي كانت تقوم على اساس قوة السلطة نفسها اي على القوة السياسية والعسكرية والمقصود بالقوة السياسية ليس إا قدرة السلطة على ادارة العملية السياسية حتى لو كانت هذه الإدارة لا تعتنى بالضوابط الدينية وقواعد العمل السياسي الموروث عن تجربة الحكم الإسلامي السابق، بل هي تنبع اساساً من وحي الرؤية الإسلامية للحكم ووظائفه.

فضلاً عن انه يمكن ان يتفقا على مستوى النتيجة بمعنى ان استنهاض ارادة الأمة انما هو من اجل القيام بعملية اصلاح شاملة على كافة المستويات السياسية والإجتماعية وايضا الدينية والثقافية والفكرية بمعنى ان هذا الجانب من الإصلاح – أي الفكر – يجب ان يكون ملحوظاً

في المشروع الإصلاحى الذى يراد تحريك ارادة الأمة من أجل ان تبادر إلى تطبيقه وتحويله إلى واقع حى.

وهنا نستطيع القول انه فضلاً عن التداعىات التى سوف تتركها التجربة الحسينية فيما يرتبط بالمشروع الأموى فإن لهذه التجربة آثارها المهمة جداً بالنسبة إلى المجتمع الإسلامى العام على مستوى تقديم مثال حىوى وخلّاق وفعال للتضحية والجهاد من اجل الدفاع عن الدين والإصلاح فى المجتمع ولا شك ان مفاعيل ذلك المثال سوف تقضى بنسبة كبيرة على المفردات الثقافىة التى استقرت بنسبة او اخرى فى وعى المجتمع الإسلامى، هذه المفردات التى كانت قد تسللت واستقرت بفعل الأبواق الإعلامىة للسلطة وتلك السىاسة الثقافىة التى جهدت السلطة من اجل نشرها لتسهم فى تثبيت قواعدها وديمومتها.

إنّ النموذج الحسینى سیکنس تلك الثقافة السلطویة – ثقافة التخذیر والتبریر – لصالح بناء ثقافة جدیدة هی ثقافة الجهاد والإستشهاد، إنّ هذا النموذج سوف یتحول إلى قدوة رائعة لكل الأعیال الإسلامیة التى سوف تتلاحق لیکون عاملاً محرکاً لها فى سبیل الدفاع عن الدین وإصلاح المجتمع ومقاومة الظلم.

ویجب الإلتفات إلى أنه عندما نتحدث هنا عن اصلاح او تغییر على المستوى الثقافى والفكرى فإننا نتحدث عن الإصلاح الدینى بالتحذید باعتبار ان المصدر المعرفى الوحید الذى كان یعتمد علیه من اجل تکوین الوعى الإسلامى العام انما هو الدین والمعرفة الدینیة.

كما أنّ عملية الإصلاح الديني – على المستوى الثقافي والفكري والتربوي- سوف تكون مقدمة من اجل القيام بعملية اصلاح اجتماعي سياسي اقتصادي تؤدي إلى تغيير الواقع الفاسد في تلك الفترة، من جهة ان الوعي العام للمجتمع الإسلامي آنذاك لم يكن قائماً على اساس الفصل ما بين الديني- بمعناه الخاص – والسياسي الاجتماعي الإقتصادي.

فضلاً عن ان هذه الرؤية لا تريد ان تختزل هدفية الثورة الحسينية بالإصلاح الديني بل تريد ان تقول ان الإصلاح الديني - بالمعنى الذي اشرنا إليه – هو هدف من الأهداف الأساسية لتلك الثورة بالإضافة إلى الإصلاح على بقية المستويات.

وبالتالي نستطيع القول باختصار ان مؤدى الرؤية الأولى هو ان الثورة كانت تريد ان تحرك ارادة الأمة من اجل القيام بالمشروع الإصلاحى، بينما مؤدى الرؤية الثانية هو ان الثورة كانت تهدف إلى الإصلاح على كافة المستويات الدينية والسياسية والاجتماعية ولذا لا تباين بين هاتين الرؤيتين بل هما مكملتان لبعضهما البعض.

ولا اعتقد ان الرؤية الأولى تريد ان تنفي لحاظ الإصلاح الديني في مشروع الثورة خصوصاً انه إذا عدنا إلى بيانات الثورة فإننا نجد ان هذا الجانب من الإصلاح قد كان ملحوظاً فيها وفي الخطاب الثقافي – الإعلامى الذي قدمته للأمة آنذاك، يقول الإمام الحسين (ع) في الكتاب الذي ارسله إلى اشراف اهل البصرة:

"..وانا ادعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه، فإن السنة قد اميتت والبدعة قد احييت فإن تسمعوا قَوْلِي أهدكم إلى سبيل الرشاد والسلام عليكم

ورحمة الله وبركاته"(1).

ويقول عليه السلام في الخطبة التي خطبها في الناس في منزل البيضة:

"ايها الناس إن رسول الله (ص) قال من رأى سلطاناً..(إلى أن يقول عليه السلام) ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن وظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفيء واحلوا حرام الله وحرموا حلاله.."(2).

فضلاً عن سعيهم الحثيث للقضاء على المرجعية الدينية والمعرفية لمدرسة الإمامة واختلاقهم للأحاديث لمواجهة مرجعية اهل البيت من جهة ولايجاد منظومة من المفاهيم الدينية (3) والتشريعية التي تبرر مصالحهم السياسية من جهة أخرى، ومن هذه المفاهيم وجوب طاعة الإمام حتى لو كان جائراً ظالماً، وهذا المنطق السياسي نجده مستخدماً بكثرة من قبل اجهزة السلطة ورموزها وخصوصاً في حوارهم السياسي مع قادة الثورة ورجالها، ومن هذه المفاهيم وجوب حفظ الجماعة حتى لو كانت على ضلال فإنه يحرم الخروج على الجماعة ومفارقتها وشق عصا المسلمين...

كذلك يحرم نقض البيعة حتى لو كان المبايع حاكماً فاجراً فاسقاً لا يلتزم بالدين ولا بسنة سيد المرسلين (ص) فمن غي الجتنز نقض بيعته، وسوف ننقل بعض العينات التاريخية التي توضح لنا استخدام هذا المنطق

(1) صفحات من تاريخ كربلاء، ص 221 (عن تاريخ الطبري).

(2) م ن، 232 (عن تاريخ الطبري).

(3) سوف نتحدث عنها لاحقاً بالتفصيل.

بعد ان يقبض على مسلم بن عقيل يقول له ابن زياد:

"يا شاق خرجت على امامك وشققت عصا المسلمين؟"

اما عمرو بن الحجاج – احد قادة جيش الكوفة – فيعلل عملهم الذي ارتكبوه في كربلاء بقوله: "اننا لم نعص إمامنا ولم نفارق الجماعة".

وعندما اراد معاوية أن يأخذ البيعة لابنه يزيد يذهب إلى المدينة من أجل إرغام المعارضين فيها على إعطاء البيعة ليزيد، وكان من جملة المعارضين زوجة النبي عائشة، ومن أجل ان يقنعها بالبيعة قال لها:

انني قد اخذت البيعة ليزيد من جميع المسلمين فهل تجيزين لي نقضها، فتكون تلك البيعة كأنها لم تكن ويخلع الناس عهودهم(1)؟.

الإصلاح الديني في رؤية الإمام الخميني والقائد الخامنئي:

ولذا نتيجة هذه الأعمال فقد اصبح الخطر على الدين نفسه وعلى وجوده، قول الإمام الخميني (قده) "بعد رحلة النبي (ص) – مُرسي أُسس العدالة والحرية – أوشك الإسلام أن ينمحي ويتلاشى بسبب انحرافات بني أمية وكاد يسحق تحت أقدام الظالمين ويبتلع من قِبَل الجبابرة، فهبَّ سيد الشهداء (ع) لتفجير نهضة عاشوراء العظيمة"(2).

(1) يرجع إلى : رسول جعفریان، الحياة الفكرية والسياسية لأئمة أهل البيت (ع)، ج 1 ، صص 136-139.

(2) نهضة عاشوراء، ص 37.

ويقول أيضاً: " لقد اوشكت حكومة يزيد – وجلاوزته – الجائرة ان تمحو الإسلام وتضيع جهود النبي(ص) المضنية وجهود مسلمي صدر الإسلام ودماء الشهداء وتلقي بها في زاوية النسيان..."(1).

ويقول الإمام الخامنئي حفظه الله:

" كانت العبادة والتضرع والتوسل والإعتكاف في حرم الرسول والرياضة المعنوية والروحية أحد أطراف القضية والطرف الآخر هو سعيه الحثيث في نشر العلم والمعرفة ومجابهة التحريف، كان التحريف آنذاك أكبر تحدٍ معنوي يهدد الإسلام ويجري كالسيل الجارف من الفساد والماء الأسن فيركد في أذهان أبناء المجتمع الإسلامي، وهو عصر جرى فيه التأكيد على الولايات والبلدان والشعوب الإسلامية بلعن أعظم شخصية في تاريخ الإسلام"(2).

ايضاً عن الإمام الحسين(ع) يقول " ..وفي هذا المجال الثقافي ايضاً دأب على مكافحة التحريف ونشر الأحكام الإلهية وتربية التلاميذ والشخصيات الكبيرة.."(3).

ويقول ايضاً: " تارة ينحرف الناس – وهذا ما يقع كثيراً – لكن تبقى أحكام الإسلام سليمة، وتارة ينحرف الناس ويفسد الحكام والعلماء ومبلغو الدين، فيحرفون القرآن والحقائق وتبدل الحسنات سيئات والسيئات حسنات، ويصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً ويحرّف الإسلام 180

(1) نهضة عاشوراء، ص 37.

(2) (3) عاشوراء في فكر الإمام الخامنئي، صص 27-28.

درجة، فما هو التكليف حينذاك إذا ما ابتلي النظام والمجتمع الإسلامي بهذا الأمر؟" (1).

ويجيب "أنَّ الإسلام قد انحرف في عصر الإمام الحسين (ع) وكان الوقت مناسباً لذا وجب عليه ان يثور فالشخص الذي تولى السلطة بعد معاوية لم يراع حتى ظاهر الإسلام.."(2).

ثم يذكر هذا الموضوع بالتفصيل ويأتي بالشواهد عليه من النصوص التاريخية التي نقلت عن الإمام الحسين صلوات الله وسلامه عليه وآله (3).

إنَّ كل ذلك يثبت ما أشرنا إليه من وجود صراع معرفي ديني وإن اختلفت دوافعه ومنطلقاته، وإنَّ السلطة كانت تدرك أهمية الديني وإرتباطه بالسياسي ولذا حتى تمتلك مشروعيتها السياسية لابد أن تمتلك مشروعيتها الدينية ومن هنا أقبلت على الديني من أجل أن تصنعه بطريقة تخدم فيها مصالحها واستقرارها، بل نجد لدى بعض سلطات الخلافة اهتماماً بالشأن المعرفي سواء كان في داخل البيئة المعرفية الإسلامية أو خارجها وهذا ما قد يطرح السؤال حول مبررات الإستعانة المعرفية بثقافات ومرجعيات أجنبية؟

الإصلاح الديني في رؤية الشهيد المطهري:

يتحدث الشهيد مطهري عن استغلال الأمويين للعامل الديني

(1) (2) م ن، ص 42-44.

(3) يرجع م ن، ص 48-51.

والإستفادة التي حصلوا عليها من خلال توظيفهم لهذا العامل فيقول:

" لقد تمكن الأمويون من السيطرة على بيت المال والمراكز الحساسة للسلطة بعد نهاية عهد حكومة عثمان ومع تمكنهم من الثورة والمراكز الحساسة لم يعد ينقصهم في الواقع سوى ذلك العامل القوي والاساسي ألا وهو عامل الدين. لكن معاوية تمكن بعد مقتل عثمان ومن خلال حركته الذكية وتلفيقه الشيطاني لرواية كيفية مقتل عثمان من الإمساك بهذا العامل أيضاً واستخدامه في صراعاته السلطوية.

وهكذا تراه قد تمكن من تعبئة جيش عظيم بإسم الدين وتحت لواء الشريعة الإسلامية ونحريضه لقتال شخص مثل علي بن أبي طالب (ع). ومن بعد أن تسلم معاوية السلطة كاملة تمكن من السيطرة على العامل الديني تماماً من خلال إستئجار عدد من رجال الدين المرتزقة أمثال أبي هريرة. وهكذا يكون قد أضاف عاملاً جديداً إلى عوامل حكمه وهو عامل الروحانية وطبقة الروحانيين بعد أن كان لا يملك سوى عناصر السياسة والمراكز الحساسة والثروة...."(1).

ويشير إلى بعض المفاصد على مستوى المعرفة الدينية التي أحدثتها السلطة الأموية خلال فترة حكم معاوية فيقول:

"... صحيح أن معاوية قد مات لكنه مع موته ترك وراءه عدداً من السنن السيئة والتي هي:

(1) الملحمة الحسينية، ج3 ، ص12.

أ. بدعة لعن علي وسبه.

ب. بدعة صرف اموال الدولة في شراء ذمم بعض الرجال من الروحانيين المرتزقة وأمرهم بتزوير الأحاديث التي تنقص من قيمة علي(ع) وبعبارة اخرى استخدام العامل الروحاني الذي تمثل آنذاك بعلماء السوء ضد علي(ع) تماماً كما استخدم من قبل العامل الديني في قضية قتل عثمان(ثصة سمرة بن جندب مع الآية: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله...﴾).

ج. قتل الأبرياء بدون حق وهي بدعة جديدة أيضاً لم يكن لها سابقة في الإسلام، بالإضافة إلى عدم إحترام النفس البشرية، وقطع الأيدي والأرجل، وقطع الرؤؤس وحملها على الحراب وهو ما فعله معاوية وعمرو بن الحمق الخزاعي.

د. تسميم المعارضين، واعتبار ذلك امراً عادياً وهو الأمر الذي يخالف كل أوجه المروءة والإنسانية، لكنه للأسف كان قد أصبح سنة متبعة عند الخلفاء من بعد معاوية، هذا وقد ابتداء معاوية هذه السنة السيئة بتسميم كل من الإمام الحسن (ع) ومن ثم اتبعه بمالك الأشتر وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد الذي كان من أفضل أنصار الحسن (ع).

هـ. جعل الخلافة وراثية في بني أمية وتعيين ابنه يزيد – الذي لم يكن يحمل كفاءات تُذكر – ولياً للعهد من بعده.
و. بعث قضية التمييز العنصري من جديد وترجيح العربية على العجمية، والقرشية على غير القرشية" (1).

(1) م ن، ص 18-19.

كما أنّ الأمويين أثاروا بعض المفاهيم التي كانت سائدة أيام الجاهلية والتي عمل الإسلام على إبادتها، لكنهم أعادوا إحيائها كالعصبية العرقية كما أنّ الإسلام في الوقت الذي جعل فيه للشعر مجالاً خاصاً ومحدوداً ودفع الناس للتأدب بأدب القرآن واخلق النبي ودعا إلى الإعتبار بما ينقله لنا كتاب الله تعالى من الماضين وإلى الاسترشاد بهدي الدين، فإننا نرى أنّ معاوية يجعل كل ذلك الدور للسان الشعر يقول الشهيد مطهري:

"إنّ من جملة ما كان يروّج له الأمويون ويدافعون عنه بإصرار هي فكرة التعصب العرقي...."

السمة الثانية من سمات السياسة الأموية هي ترويجهم للشعر، لاسيما الشعر الجاهلي.

فإضافة إلى ترويجهم للشعر كشعر وكقيمة جمالية بحد ذاته فإنهم كانوا يريدون الإيحاء إلى الناس بأن الحكمة أيضاً إنما تكمن أكثر ما تكمن في الشعر.

ففي المجلد الرابع لـ (ابن خلكان في الصفحة 328 منه، وفي سياق شرح سيرة ابي عبيدة النحوي ورد:

وذكر المبرّد في كتاب الكامل أنّ معاوية بن أبي سفيان قال:

اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر آدابكم فإنّ فيه مآثر اسلافكم، ومواضع إرشادكم فلقد رأيتني يوم الهزيمة وقد عزمت على الفرار، فما ردني الا اقول ابن الإطنابة الأنصاري:

أبت لي عفتي وأبى بلائي
واجبشامي على المكروه نفسي
وقولي كلما جشأت وجاشت
لأدفع عن مآثر صالحات
وأخذي الحمد بالثمن الريح
وضربي هامة البطل المشيح
مكانك تحمدي او تستريحي
واحمي بعد عن عرض صريح
وما عبارات معاوية هنا في الواقع سوى تعبير عن مناهضته
للمقولة القرآنية ﴿ الشعراء يتبعهم الغاؤون... ﴾ ومحاربتة للسنة النبوية
الشريفة.... "(1).

ويتحدث الشهيد المطهري عن ذلك الأثر الذي أحدثته ثورة الإمام
الحسين (ع) وما ترتبت على شهادته من إحياء للإسلام من جهة أن حدث
الشهادة خلق حس الشخصية في المجتمع الإسلامي، أي بمعنى أن يشعر
المجتمع بوجوده ومكانته وامتلاكه للعزة والكرامة وقدرته على التأثير في
مجريات الأمور وعلى أن يكون صاحب قرار، يقول الشهيد مطهري :

"كثيراً ما يتردد على لساننا القول بأنَّ الحسين بن علي (ع) قد
أحيا بتضحياته رسالة الإسلام من جديد، وسقى شجرته بدمائه الزكية
الطاهرة. ونقرأ في زيارته كذلك: " أشهد أنك قد أقيمت الصلاة وآتيت
الزكاة وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر وجاهدت في سبيل الله حق
جهاده".

ولا بد لنا أن نتساءل هنا عن العلاقة الموجودة بين شهادة الحسين
بن علي (ع) وبين إستنهاض قوة الإسلام، وإحياء أصول الدين وفروعه؟
ذلك أنّ مجرد سيل الدم لوحدده لا يمكن أن يكون منشأً لمثل هذه الأمور.

(1) م ن، 66-67.

فما هي العلاقة حقاً بين نهضة الحسين، وقيامه وشهادته، وهذه الآثار التي نتحدث عنها ونُدّعي حصولها وهو ما يبرهنه التاريخ بالفعل؟...

إنَّ شهادة الحسين بن علي نفخت روحاً جديدة في الإسلام. وكما قلنا في (المحاضرة الأولى) فإنَّ الأثر الناتج عن أي خطبة أو واقعة أو شخصية حماسية نراه في الواقع في موج الحركة الذي ينبعث في الروح وفي الحمية والغيرة التي تتولد معها والشجاعة والصلابة المترتبة على ذلك. إنها تعبير عن حركة الدماء وغلِيانها في الأبدان وخروج الأجسام من حالة الكسل والخمول إلى عالم النشاط والفعالية وخفة الحركة. فهناك عمليات سيل للدماء كثيرة تحدث هنا وهناك لكنها لما كانت لا تحمل معها إلا بُعد النزيف الدموي فإنَّ أثرها يقتصر على إيجاد الرُعب والهول في نفوس الناس وإضفاء مزيد من الوحشة عليهم وخنق للأنفاس في الصدور وسلب للقوة الشعبية...

لقد وضع الحسين يده على الجرح – كما يقول المثل- أي إنَّه بعمله هذا حرَّك حُسن الشخصية في المجتمع، وهذه المسألة مهمة للغاية إذ ليس هناك رأسمال أثنى وأعلى من هذا الرأسمال لأي مجتمع كان، أن يحسَّ المجتمع بوجود شخصية خاصة به وأن يتولد عنده إحساس بالعزة والكرامة وامتلاك لقيم مثالية تخصه دون غيره من المجتمعات الأخرى بحيث إنه يصبح مكتفياً ذاتياً وعندما يصل مجتمع ما في سلم التطور إلى مثل هذه الحالة، أي أن تصبح لديه فلسفة مستقلة في الحياة، يستطيع المباهاة بها، الفخر بحياته المستقلة القائمة على تلك الفلسفة، عندها يمكن القول بأنَّ هذا المجتمع استطاع الحفاظ على حماسته وملحميته ذلك أنَّه استطاع أن يحافظ على فلسفته المستقلة الخاصة النابعة من كيانه ووجوده

وأن يؤمن بها ويعتقد بأنها هي الأفضل والأرقى والأحسن، وأن من حقه التباهي بها بين الأمم." (1)

وهنا نعود إلى السؤال الذي طرحناه آنفاً عن تلك الإستعانة بمرجعيات وثقافات اجنبية ومدى دخالتها بالشأن السياسي، ومن المفيد أن نستعين هنا بتلك القراءة المعاصرة للعلاقة بين المعرفي والسياسي.

المعرفي والسياسي لدى اركون:

إن قريباً من هذا السؤال قد طرحه محمد اركون في كتابه " نافذة على الإسلام " حيث يقول: " ورث التراث اليوناني ونقله إلى الغرب بدءاً من القرن الثاني عشر فهل يرجع هذا الإنفتاح على الفلسفة والعلم اليونانيين إلى فضول المسلم الفكري في ذلك الزمان أم إلى توصية صريحة من القرآن الكريم والنبى " ثم يقول: " إنها لواقعة تاريخية أن الفلسفة والعلم اليونانيين عرفا انتشاراً سريعاً في المناخ الإسلامي من القرن الثامن إلى القرن الثاني عشر، لا القرآن الكريم ولا النبى(ص) حثاً على دراسة هذه المواد، بل على العكس من ذلك فمنذ القرن التاسع ظهرت معارضة قوية من الأوساط الدينية للعلوم التي تدعى العلوم العقلية وهي ما يقابل العلوم الدينية والنقلية".

وبعد أن يفسر تلك الظاهرة يتجذر الفكر اليوناني في الشرق الأوسط يقول " وتقع مرحلة الترجمة الكبرى في عهد الخليفة العظيم المأمون عام (813-833) مؤسس دار الحكمة الشهيرة في بغداد". (2)

فلاحظ أن اركون يحصر احتمالات الإنفتاح على الفلسفة والعلم

(1) من ، ج 1 ، ص 121-123.

(2) ص117.

اليونانيين إلى أمرين: فضول المسلم الفكري أو التوصية من النبي والقرآن ثم يخلص إلى السبب هو جذر الفكر اليوناني في الشرق الأوسط.

والعجيب أنّ اركون لم يتحدث عن احتمال دخالة السياسي في تلك الحملة المعرفية، بمعنى ان السلطة – أموية او عباسية- تريد انشاء مدرسة معرفية ثقافية من أجل ان تواجه من خلالها مدرسة المعارضة باعتبار أن هذه المدرسة تملك من المقومات العلمية والمعرفية ما يجعلها الرائدة في الحقل المعرفي مع ما يملك ذلك من دلالات على المستوى الإجتماعي والسياسي وبالتحديد عندما تكون تلك المعرفية منتمية إلى الحقل الديني.

واركون نفسه بعد ان يتحدث عن التاريخ الرسمي وسعي السلطة الحثيث لفرض رؤيتها ومفاهيمها للأحداث بطريقة تناسب مصالحها بواسطة " كتبة التاريخ او نقلة الأخبار المتحمسين للدواة الرسمية (أي الأموية والعباسية اساساً) يقول " لقد حاول هؤلاء – كما هو متوقع – حذف خصومهم وفرض صورة عن الأحداث تناسب مصالحهم ودعوها بالصورة الإسلامية، في حين أنها صورة حزب واحد أو جهة واحدة فقط" إلى أن يقول " وفي الوقت الذي راح فيه جهاز الدولة المركزي للسلطة يتبلور ويترسخ ويوسع من صلاحياته وكفاءاته ويفرض خياراته الأيدولوجية على يد الأمويين أولاً ثم العباسيين ثانياً ظلت مسألة شرعية الزعيم – الوسيط وطروحة وعرضة للنقاش والجدل"(1).

(1) الإسلام والأخلاق والسياسة ص 234 - 135.

وهو يشير إلى انه قد التفت إلى دخالة السياسي مع الديني والمعرفي، وإلى وجود جهاز معرفي – علماء البلاط – حاضر من أجل أن يقد خدماته الدينية للسلطة الحاكمة التي كانت تسعى لتقديم المادة المعرفية التي تنسجم ومصالحها.

المعرفي والسياسي لدى الجابري:

يشير الجابري إلى إرتباط السياسي بالديني فيقول:

" إن الوضع الذي تسرب إلى الحديث النبوي بدوافع سياسية لابد أن يكون قد تسرب بقوة إلى الرويات التي كانت تنقل شفهيّاً وعلى مدى قرنين من الزمان، أخبار ما جرى في الماضي وخاصة ما يتعلق بالأحوال السياسية..."(1).

وقد كان واضحاً في تحليله لعملية الإستيراد المعرفي التي عملت السلطة العباسية على تنظيمها ورعايتها إذ لم يكن ذلك بعيداً عن المصالح الزمنية للسلطة العباسية، فيقول: " إذن فحركة الترجمة التي نشطها المأمون وجند امكانيات دولته من أجلها والتي اتجهت إلى أرسطو اساساً انما كان الهدف منها مقاومة الغنوص المناوي والعرفان الشيعي اي مصدر المعرفة التي تدعيه وتنفرد به الحركات المعارضة للعباسيين، وإذن فحركة الترجمة تلك التي اتجهت إلى ارسطو بالذات كانت جزءاً اساسياً ورئيسياً من استراتيجية جديدة لجأ إليها المأمون لمقاومة الأساس

(1) تكوين العقل العربي، ص110.

المعرفي لأيديولوجيا خصومه السياسيين". (1)

ويصرح بأن الأيديولوجيا قد كانت في خدمة السياسة – طبعاً الأمر لا يصدق على مدرسة الإمامة ونهجها السياسي- فيقول موضحاً:

" والواقع ان الصراع بين العباسيين والعلويين الذي استفحل بعد أن انهار التحالف بينهما بسبب استئثار بني العباس بالحكم مباشرة اثر نجاح ثورتها المشتركة ضد الأمويين – لم يكن صراعاً سياسياً وعسكرياً وحسب لقد كان ايضاً ولربما بدرجة أشد وبصورة أكثر دواماً واتصالاً صراعاً ايديولوجياً وبطبيعة الحال فلقد كانت الأيديولوجيا كما هو الحال دائماً من أجل السياسة وليس العكس" (2).

إنّ الفكرة التي قدمها الجابري لهي فكرة جديدة بالتقدير أن الصراع لم يكن صراعاً سياسياً فقط بل كان ايضاً صراعاً معرفياً دينياً توظف فيه المعرفة الدينية من أجل المصالح السياسية لكن اولاً لا يمكن اطلاق هذه العبارة بشكل يستوعب كل أطراف الصراع، إذ أنه يمكن بقدر أكثر سهولة ان نقول بجدل السياسي والديني، لكن ايهما لدى هذا الطرف أو ذاك في خدمة الآخر؟ فهو يحتاج إلى بحث مستأنف إلى معالجة مختلفة لا نصادر فيها النتائج مسبقاً.

والأمر الثاني الذي ينبغي الإشارة إليه هو أن الجابري لم يكن موفقاً عندما حصر المدرسة المعرفية والفكرية للمسلمين الشيعة بالعرفان

(1) من ، ص 224.

(2) م ن، ص 225.

بل قد اتهم الشيعة بالهرمسة وقال عنهم بأنهم اول من تهرمس في الإسلام، مع أن ما يجب قوله هو أن المدرسة المعرفية الفكرية للمسلمين الشيعة كما تستوعب العرفان فإنها تستوعب ايضاً البيان والبرهان، والمنهج المعرفي الشيعي قائم على استحضار النص الديني بل إن الدور الذي يأخذه ذاك النص هو دور متميز وواسع، فضلاً عن تلك المساحة المهمة التي يشغلها العقل في ذاك المنهج والدور التأسيسي الذي يلعبه في بناء صرح الفكر الشيعي معرفياً وكلامياً وفلسفياً بل وحتى دخالته في تحديد بعض القضايا الفرعية بناءً على طلب تقنين خاص مراعى في تقنيات العلوم المختصة.

اما قضية الهرمسية فقد كانت خطأ فادحاً ارتكبه الجابري لأن ادنى اطلاع على الفكر الشيعي يثبت بشكل واضح انه بعيد عن اصول الهرمسية ومعتقداتها خصوصاً في قضية الألوهية والنفس والكون.

بل الملاحظ - وهو ما يذكره الجابري نفسه - ان الطرف المقابل للشيعة - كالعباسيين - هو الذي كان يقوم بعملية الإستيراد المعرفي سواء لتلك العلوم "المستقيلة" او للفلسفة وغيرها.

إضاءة على حقيقة تاريخية:

ويُبرز الجابري حقيقة تاريخية مهمة لها دلالتها التي يجب الوقوف عندها، يقول "فعلاً تجمع المصادر العربية على أن خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى سنة 185 كان أول من اشتغل في الإسلام بالعلوم القديمة

(1) للإطلاع أكثر يمكن الرجوع إلى كتابنا دراسات في الفكر الديني في بحث الشيعة وهرمسية الجابري.

وبالخصوص منها الكيمياء والتنجيم والطب وانه قد نقل ذلك من الإسكندرية التي قلنا عنها إنها كانت موطن الهرمسية، والبيانات التالي تؤكد الأصل الهرمسي لتلك العلوم.(1)

والآن نعود إلى طرح هذا السؤال: لماذا يكون خالد بن يزيد بن معاوية هو أول من ينقل العلوم القديمة إلى الثقافة الإسلامية؟ وهل أن عملية الإستيراد هذه منفصلة عن حلبة الصراع المعرفي – السياسي؟

وإن مما لا شك فيه ان السلطة الأموية كانت تحتاج إل تأسيس مدرسة معرفية من أجل مجابهة مدرسة الخصم – المعارضة ولا شك ان وجود نتاج معرفي خارج اطار الجغرافيا المعرفية الدينية يغري تلك السلطة باستحضاره من أجل توظيفه في تلك المواجهة المعرفية – السياسية وبالتالي ليس من البعيد ابداً ان تكون عملية الإستيراد تلك مرتبطة بمشروع السلطة الساعي إلى تكوين مرجعيته المعرفية ومدرسته الفكرية الخاصتين به.

خصوصاً ان خالد بن يزيد هذا قد عايش تلك الفترة التي احتدم فيها الصراع بين المشروع الأموي والمشروع النبوي المتمثل بأهل البيت (ع) والأئمة المعصومين(ع)، وليس من البعيد أنه أدرك تلك التداخيات التي تركتها شهادة الإمام الحسين (ع) على مجمل الأوضاع وعلى المشروع الأموي خاصة.

إن الشيخ المفيد رضوان الله عليه ينقل في كتابه الإرشاد حادثة ربما كان لها الأثر في دفع خالد بن يزيد للقيام بعملية الإستيراد المعرفي

(1) م ن ، ص 194.

يقول : " لما وضعت الرؤوس بين يدي يزيد وفيها رأس الحسين (ع) قال
يزيد:

نفلق هاماً من رجال أعزةٍ علينا وهم كانوا اعقوا وظلما
فقال يحيى بن الحكم - أخو مروان بن الحكم - وكان جالساً مع يزيد:

لهام بأدنى الطف أدنى قرابة من ابن زياد ذي الحسب الرذل
أمية أمسى نسلها عدد الحصى وبننت رسول الله ليس لها نسل
فضرب يزيد في صدر يحيى بن الحكم وقال: اسكت، ثم قال لعلي
بن الحسين: يا بن حسين، ابوك قطع رحمي وجهل حقي ونازعني
سلطاني، فصنع الله به ما رأيت، فقال علي بن الحسين:

﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم الا في كتاب من
قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ﴾.

فقال يزيد لابنه خالد: اردد عليه، فلم يدر خالد ما يردّ عليه" (1).

لقد فرض عليه ابوه يزيد امتحاناً مع منافسه - علي بن الحسين
(ع) في مجلس عام فكانت النتيجة فشل في ذلك الإمتحان الذي يرتبط
بالمعرفة الدينية والنص الديني.

إن خالد بن زياد هذا هو الذي يقول عنه ابن كثير " كان يقال انه
أصاب علم الكيمياء" (2).

(1) الإرشاد، ج 2، ص 120.

(2) البداية والنهاية، مج 4، ص 190.

والعبارة هي ذاتها يذكرها الطبري بتغيير بسيط اذ يذكر بدل "عبارة علم كيمياء" عبارة "عمل الكيمياء".

إن هذه العبارة وإن كانت توحى بنوع من الإهمام المعرفي لخالد هذا لكن مما لا شك فيه انه عايش ازمة المشروعات التي عاشها المشروع الأموي خصوصاً أن الخلافة قد انتقلت بعد ابيه إلى أخيه معاوية الذي تركت استقالته من الخلافة مشكلة سياسية كبيرة، إذ ان خطاب الإستقالة الذي ادلى به كان خطاباً في المشروعات السياسية يسعى لإبراز آليات الإستخلاف المتبعة في تجربة دولة الخلافة والتي نفتقدها السلطة الأموية.

إن خالد هو الذي صلى على أخيه معاوية الذي ينقل ابن كثير بيان انتقالته فيقول "معاوية بن يزيد هذا نادى في الناس الصلاة جامعة ذات يوم فاجتمع الناس فقال لهم فيما قال : يا أيها الناس اني قد وليت أمركم وانا ضعيف عنه فإن اجبتكم تركتها لرجل قوي كما تركها الصديق لعمر وإن شئتم تركتها شورى في ستة منكم كما تركها عمر بن الخطاب، وليس فيكم من هو صالح لذلك وقد تركت امركم فولوا عليه من يصلح لكم"⁽¹⁾.

وكما تجدر الإشارة إل أن خالد كان من المرشحين للخلافة بعد وفاة أخيه معاوية، وإن كانت المفاوضات داخل البيت الأموي قد افضت إلى نتيجة مغايرة وهي أن يكون مروان بن الحكم هو الخليفة على أن يكون خالد ولي عهده، وإن كان مروان هذا قد عمل لاحقاً على حصر الخلافة

(1) البداية والنهاية، مج 4، ص191.

الخلافة في البيت مرواني وابعدها عن البيت السفياي وهذا ما أدى إلى مقتله، يقول د. نبيه عاقل: " وبعد ان وصل مروان إلى الخلافة عمل جتهداً للإبقاء على سلطانه ولتوريث هذا السلطان لأولاده من بعده، ومن أجل ذلك تزوج من أرملة يزيد فاخته (ام خالد بن يزيد) وهي ابنة أبي هشام بن عتبة، وقد إستطاع بهذا الزواج أن يستميل آل زياد وأن يتخلص بالتالي من مرشحهم للخلافة خالد بن زياد إذ أنه ما لبث فترة حتى خلعه وأخذ البيعة من بعده لإبنيه عبد الملك ثم عبد العزيز بن مروان، وفي المصادر ذكر للأسلوب الذي اتبعه مروان في خلع خالد والطريقة التي اتبعها في تصغير شأنه امام الناس وكيف شكّا خالد إلى أمه (فاخته) ما صنع به مروان وكيف انتقمت ام خالد لإبنها بأن خنقت مروان بواسطة وستدة غطته بها وامسكتها عليه حتى مات"(1).

وعليه فإن خالداً كان من المرشحين للخلافة ومن المعنيين بالسلطة ولذا ليس من البعيد ان يكون ما أقدم عليه من استيراد معرفي مرتبطاً بمشروع السلطة فيما يرتبط بالمشروعية المعرفي، وإن أمكن القول في المقابل أن السلطة الأموية في تلك الفترة كانت في غنى عن هذا الإستيراد من أجل قضية المشروعية وإن كانت الفائدة منه ليست معدومة.

المؤسسة الدينية السلطوية:

من الأسئلة التي تطرح في هذا المجال ان السلطة هل سعت لتكوين مؤسسة دينية تابعة لها وتعمل بإمرتها وتضم مجموعة من فقهاء

(1) تاريخ خلافة بني أمية، ص134.

السلطين و علماء البلاط ليكونوا ادوات دينية في خدمة مشروعاتها أم انها لم تكن في صدد هذا الأمر؟ إن الواضح من خلال بعض الروايات التاريخية ان السلطة قد استطاعت ان تستفيد من بعض الرواة مستخدمة سلاح الترغيب واسلوب الإغراء المالي لتقديم المادة المعرفية التي تنسجم ومصالحة السلطة، ينقل ابن ابي الحديد عن شيخ المعتزلة الإمام أبو جعفر الإسكافي انه قال: " ان معاوية حمل قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على رواية اخبار قبيحة في علي (ع) تقتضي الطعن فيه والبراءة منه وجعل لهم على ذلك جعلاً يرغب في مثله فاختلفوا لو ما ارضاه، منهم ابو هريرة وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ومن التابعين عروة بن الزبير... "(1).

وفي هذا الموضوع يقول الإمام علي (ع):

" وقد كذب على رسول الله (ص) على عهده حتى قام خطيباً فقال: "من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار، وإنما اتاك بالحديث اربعة رجال ليس لهم خامس: رجل منافق مظهر للإيمان متصنع بالإسلام، لا يتأثم ولا يتحرج، يكذب على رسول الله (ص) متعمداً، فلو علم الناس أنه منافق كاذب لم يقبلوا منه، ولم يصدقوا قوله، ولكنهم قالوا: صاحب رسول الله (ص) رآه وسمع منه ولقف عنه فيأخذون بقوله، وقد اخبرك الله عن المنافقين فيما أخبرك، ووصفهم بما وصفهم به لك، ثم بقوا بعده، فتقربوا إلى أئمة الضلالة والدعاة إلى النار بالزور والبهتان، فولوهم الأعمال، وجعلوهم حكاماً على رقاب الناس، فأكلوا بهم الدنيا، وإنما الناس مع الملوك والدنيا وإلا من عصم الله، فهذا أحد الأربعة... "(2).

(1) الإمام شرف الدين النص والإجتهد، ص368 (عن شرح النهج لإبن الحديد).

(2) نهج البلاغة، خ 203.

إن الطعن في علي (ع) هو مادة من تلك المواد التي كانت تعنتي فيها السلطة وتشترئها من الرواة، وهي وإن كانت مادة مهمة تغري السلطة ببذل الكثير من الأموال من أجل صناعتها، لكنها لم تكن المادة الوحيدة باعتبار أن مشروعها على المستوى المعرفي الثقافي كان يتمثل في خطين عنت بهما معاً، ويتمثل الخط الأول في السعي لتحطيم الصورة المعنوية لأهل البيت (ع) والقضاء على مرجعيتهم الفكرية ويتمثل الخط الثاني في السعي لبناء مدرسة السلطة على المستوى المعرفي والثقافي.

لكن الدخول في هذا البحث نريد أن نعاين تلك المجالات التي امتدت إليها يد الفساد المعرفي للسلطة الأموية لنرى ما هي العلوم التي أحدثت فيها وحاولت الإستفادة منها.

الأدوات المعرفية للسلطة:

إن السلطة الأموية حاولت الإستفادة من علوم عديدة لتكون بمثابة ادوات معرفية لها لكن من الواضح انها تركت آثارها بشكل خاص في علوم الحديث والتفسير والكلام:

1- الحديث:

إن حديث رسول الله (ص) كان له دور خاص في تشكيل الوعي الديني للمجتمع الإسلامي ولذلك كان محل إهتمام السلطة من أجل استخدامه كسلاح معرفي فعال لخدمة اهدافها سواءً ان ارادت ان ترفع اقواماً او ان تضع اقواماً آخرين.

وقد عمل معاوية على الإستفادة من هذا السلاح فحمل الناس على رواية مرويات محددة لأغراض خاصة وقد أرسل الكتب إلى عماله من أجل هذه الغاية، يقول المدائني: " .. قرئت كتبه (معاوية) على الناس، فرويت اخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة

لها، وجدّ الناس في رواية هذا المجرى حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر، وألقي إلى معلمي الكتاتيب فعملوا صبيانهم وغلماهم من ذلك الكثير... فظهر حديث كثير موضوع وبهتان منتشر ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة وكان أعظم الناس في ذلك بليّة القراء المرأون والمستضعفون الذين يظهرون الخشوع والنسك، فيفتعلون الأحاديث ليحظوا بذلك عند ولاتهم ويقربوا مجالسهم ويصيّبوا به الأموال والضياع والمنازل، حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الديّانين الذين لا يستحلون الكذب والبهتان فقبلوها ولاوها وهم يظنون انها حق ولو علموا انها باطلة لما رووها ولا تدينوا بها"⁽¹⁾.

وسوف نتحدث في العناوين اللاحقة بشيء من التفصيل حول بعض الأحاديث التي عملت الأبواق الإعلامية التابعة للسلطة على نشرها وتزويجها بعد ان تم وضعها بعناية فائقة لترضي الولاة وتجنّي الهبات.

2- التفسير:

إن علم التفسير وإن كان من العلوم التي يعتمد فيها آنذاك بشكل اساسي على الحديث – اي ان التفسير كان تفسيراً حديثياً – لكننا فصلناه في عنوان مستقل لنركز هنا على ذلك الحديث الذي يُنتج لتفسير بعض آي القرآن الكريم.

ان السلطة الأموية حاولت ان تستفيد من أقوى اداة معرفية لدى المجتمع الإسلامي على مستوى القدسية الا وهي القرآن الكريم من

(1) مرتضى العسكري، معالم المدرستين ، ج 2، ص 55-56 (شرح النهج لابن ابي الحديد).

أجل توظيفها في معركتها السياسية، فكان ان حاولت شراء بعض الأحاديث من سماسرة الرواية من أجل ان توجه ضربة قاسية إلى الخصم السياسي - المهرفي مستخدمة سلاح المال وشراء ضمائر الرجال، تلك الرجال التي كان معاوية يعمل على إعطائها هالة من القدسية بعنوان صحبتها لرسول الله (ص) ليكون لها نفوذها المعرفي وهذه القصة التي سوف ننقلها تشير إلى تدني المستوى القيمي والمبدئي لدى البعض واستعداده للذس والوضع في تحديد مصداق بعض الآيات الكريمة.

ذكر ابن أبي الحديد عن ابي جعفر الإسكافي انه قال في سمرة بن جندب: " قد رُوي ان معاوية بذل لسمرة بن جندب مائة ألف درهم حتى يروي ان هذه الآية نزلت في علي (ع) ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الأخصام، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ﴾ وان الآية الثانية نزلت في ابن ملجم وهي قوله تعالى ﴿ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴾، فلم يقبل فبذل له مائتي ألف درهم فلم يقبل، فبذل له أربعمائة ألف درهم فقبل!"(1).

3- علم الكلام:

إن السلطة الأموية لم تستثن وسيلة معرفية إلا وحاولت الاستفادة منها وهي بالتالي لم توفر المعارف العقائدية فامتد فسادها المعرفي إلى تلك الأسس العقائدية التي يرتكز عليها الفكر الإسلامي.

(1) مرتضى العسكري، احاديث ام المؤمنين عائشة، ج1، ص375.

ولذا قال الأمويون بالجبر والإرجاء (1) وإن كان جل تأكيدهم كان على قضية الجبر التي وجدوا فيها ملاذاً معرفياً قد يسهم في تقديم نوع من التبرير الديني لوصولهم إلى الحكم ويرفع عنهم مسؤولية تلك الأفعال الشنيعة التي ارتكبوها أثناء حكمهم أو من أجل اعطائها نوعاً من الشرعية الدينية ومن المقبولية في المجتمع الإسلامي.

وهنا سأكتفي بنقل نص دال لأحد الباحثين تاركاً التفصيل إلى البحوث القادمة يقول: "اعتنق الأمويون مذهب الجبر في الخلافة منذ صدر دولتهم وكان زياد بن أبيه أول من بشرَ به منهم فهو يقول في خطبته البتراء لأهل البصرة سنة خمس وأربعين معلناً أن الله اختارهم للخلافة وانهم يخكمون بقضائه ويعلمون بأذنه: "ايها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة نسوسكم بسلطان الله الذي اعطانا ونذود عنكم بفيء الله الذي حولنا..."، ولم يزل الأمويون يعتقدون مذهب الجبر في الخلافة بعد ذلك ويستندون إليه في تقرير حقهم فيها ويسوغون به استئثارهم فيها إذ يقول يزيد بن معاوية في كتاب له إلى عامل المدينة: "إن معاوية بن أبي سفيان كان عبداً من عبيد الله أكرمه الله واستخلفه وخوله ومكن له.. وقد قلدنا الله عز وجل ما كان إليه"(2).

المشروع المعرفي (3) الثقافي للسلطة:

قد يطرح البعض هذا السؤال أنه ألا يكون من المبالغة القول

(1) سنأتي لاحقاً على الحديث فيهما تفصيلاً.

(2) حسين عطوان، الأمويون والخلافة، ص 25-26.

(3) المقصود به المعرفي بمعناه العام لابعناهُ الخاص (ابستمولوجي).

بوجود مدرسة ثقافية للسلطة الأموية إذ ان القول بوجود مدرسة ثقافية تعنى بالعلوم الإسلامية من كلام وغيره يستدعي ان يكون هناك مستوى من مستويات الإبداع المعرفي والمنهجي الذي يبرر ان يوصف بكونه يشكل مرسة او نواة لإنطلاقة مدرسة في المعرفة الإسلامية، فهل هذا الأمر كان موجوداً لدى السلطة الأموية؟

في مقام الجواب يمكن القول ان ما نقصده بالمدرسة الثقافية للسلطة هو ان هذه السلطة تتبنى اكثر من رؤية في الكلام والذين والسياسة. تشكل في مجموعها منظومتها المعرفية، فهل كانت تتبنى منظومة معرفية محددة أم لا؟ بمعزل عن أن تكون هذه الرؤى والمفاهيم مبدعة من العقل المعرفي للسلطة – إذا كانت تمتلكه – ام كانت رؤى ومفاهيم التقاطية قد أخذتها من أكثر من بيئة معرفية حتى لو كانت غريبة عن جغرافية المعرفة الإسلامية، فإذا كانت السلطة الأموية قد التقطت بعض المفاهيم وعملت على انتاج مفاهيم أخرى، واختلقت مجموعة من النصوص الدينية فإنما ارادت بذلك تكوين تلك المنظومة المعرفية الدينية التي تسمح بالتأسي لخطاب معرفي ديني يخدم مصالحها السياسية، إن ما نقصده بالمدرسة الثقافية للسلطة هو تلك المنظومة من العقائد والمعارف والمفاهيم، بلحاظ كونها مادة مصنوعة وهادفة، أي مصنوعة بعناية طبق ضوابط تلك السلطة وغاياتها، وهادفة بمعنى انها تستهدف مخاطبة الوعي الإسلامي، اي انها ينظر إليها بلحاظ كونها منظومة موجهة إلى ذلك الوعي من أجل بنائه وتشكيله. إن الحرص الشديد للسلطة على صياغة الخطاب التبريري الديني لسلوكها السياسي من جهة وتلك المساحة الكبيرة من المعرفة الدينية التي لها تداعياتها ونتائجها المعرفية السياسية من

جهة أخرى قد اضطرا السلطة على العمل الجاد لتكوين تلك المنظومة المعرفية، وهو ما نعنيه بالمدرسة الثقافية او المشروع الثقافي للسلطة.

والنتيجة ان السلطة ادراكاً منها لتلك العلاقة الوثيقة بين الديني المعرفي والسياسي سواء من ناحية المشروعات السياسية او من ناحية موقف المجتمع الإسلامي من السلطة نفسها، فإن مصالحها السياسية تقتضي ان تجعل من المعرفية الدينية اداة اساسية تستخدمها لخدمة مشروعها السلطوي وقد تمثل هذا الإستخدام من جهتين: الأولى ضرب المدرسة الثقافية للخصم – أهل البيت (ع)- والثانية انشاء مدرستهم الثقافية التي سيكون دورها تقديم المادة المعرفية التي تتضمن ولاء الأمة للسلطة وتحرم الخروج عليها ومقاومتها، وسوف نبحث في الجهتين:

1- تحطيم المدرسة المعرفية والفكرية لأهل البيت (ع):

لقد ادرك معاوية المكانة المعنوية والعلمية لأهل البيت (ع) ودورهم المعرفي ولاحظ تلك المحبة والتقدير اللذين ينظر من خلالهما المجتمع الإسلامي إليهم، تلك المحبة التي جعلها الله تعالى بمثابة الأجر الذي يجب ان تدفعه الأمة لرسول الله (ص) من خلال مودتها لأهل بيته فقال عزّ من قائل.

﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ﴾ (الشورى، 23).

وذلك الدور الذي اعطاهم اياه الرسول (ص) حيث جعلهم بمعية القرآن المرجعية العلمية والدينية والفكرية للأمة وأكد على ضرورة التمسك بهما معاً وان التمسك بأحدهما دون الآخر لا يوصل إلى المطلوب، فقال صلوات الله وسلامه عليه في حديث الثقلين:

" تركت فيكم الثقلين، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً، كتاب الله وعترتي أهل بيتي ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما"(1).

إن معاوية قد أدرك كل ذلك وقد كلن يعلم ان هذه المكانة الدينية والمعنوية هي المشكلة الرئيسية التي يواجهها المشروع الأموي، ولذا لا بد من تحطيم هذه المكانة بأية وسيلة بغية حفاظ السلطة على مصالحها الخاصة فكان ان جعلت أبواقها الاعلامية هدفاً لها بشكل خاص الرمز الأساسي لمدرسة الإمامة الإمام علي (ع)، وإن كانت قد ورعت جهودها على أهل البيت (ع) بشكل عام وقد تمثل سعي السلطة لهدفها من خلال هذه الأساليب:

أ-اختلاق الأحاديث لدم علي (ع):

امام ذلك الحجم الكبير من الروايات التي ذكرت عن رسول الله (ص) في مدح علي (ع) وتبيين فضائله كانت الوسيلة الفضلى اختلاق مجموعة مقابلة من الأحاديث في ذم امير المؤمنين وذلا عمل الرواة المأجورون على انتاج مجموعة من الأحاديث التي ترضي تلك السلطة وتستدر أموالها نذكر بعض النماذج منها:

1. روى ابو هريرة ان علياً خطب ابنة ابي جهل في حياة رسول الله (ص) فأسخطه فخطب (ص) على المنبر وقال: لاها الله لا تجتمع ابنة ولي الله وابنة عدو الله ابي جهل إن فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها، فإن كان علي يريد ابنة أبي جهل فليفارق ابنتي

(1) مستدرك الحاكم، ج3، ص 148.

وليفعل ما يريد" (1).

2. روى الأعمش: لما قدم ابو هريرة العراق مع معاوية عم الجماعة جاء إلى مسجد الكوفة فلما رأى كثر من استقبله من الناس جثا على ركبتيه ثم ضرب صلعته مراراً وقال: يا أهل العراق اتزعمون اني أكذب على الله ورسوله واحرق نفسي في النار؟ والله لقد سمعت رسول الله يقول: إن لكل نبي حرماً وإن المدينة حرمي، فمن احدث حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين واشهد ان علياً احدث فيها، فلما بلغ معاوية قوله أجازته وأكرمه وولاه إمارة المدينة (2).

إن محاولة النيل من مكانة الإمام علي (ع) تظهر من خلال جعله مصداقاً لهذا الحديث وبالتالي محلاً للعن، ولا شك ان معاوية الذي كان شديد الحرص على أي تبرير ديني لفعله العدائي للإمام علي (ع) قد وجد في هذا الحديث غنيمة كبرى لا تقدر بثمن ومن هنا كان من الطبيعي ان يكافئ ابا هريرة بتوليته امارة المدينة.

وينقل الشيخ محمد جواد مغنية عن ابن ابي الحديد لدى حديثه عن بسر بن ارطأة الذي بعثه معاوية للإغارة على مدينة رسول الله (ص) فيقول: كان بسر بن ارطأة قاسي القلب فظاً سفاكاً للدماء، لا رافة عنده ولا رحمة.. وقد جهزه معاوية في ثلاثة آلاف، وقال له: سر حتى تمر بالمدينة، فاطرد الناس، واخف من مررت به، وانهب اموال كل من

(1) الاجتهاد في مقابل النص، ص396 (عن شرح النهج).

(2) م ن.

احصيت له مالا ممن لم يكن دخل طاعتنا، فإذا دخلت المدينة فأرهم
انك تريد أنفسهم، واخبرهم انه لا براءة لهم عندك ولا عذر.

يقول الشيخ مغنية رحمه الله: " قبل أن يغادر بسر مدينة رسول الله
استخلف على أهلها ابا هريرة واوصاهم بطاعته، و ابو هريرة هذا
الذي نص عليه بسر الخلافة من بعده رأى وشاهد البدع والأحداث
التي أحدثها بسر في مدينة الرسول الأعظم، وهو بالذات الذي وثقه
اصحاب الصحاح ورووا عن الكثير، وقد يكون السبب لتوثيقه
وتصحيح حديثه روايته عن نبي الرحمة: " ان لكل نبي حرماً وإن
حرمي بالمدينة فمن احدث فيها حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة
والناس اجمعين واشهد ان علياً احدث فيها" وتاريخ رواية هذا
الإفتاء متأخر عن غزوة بسر للمدينة واستخلافه ابا هريرة
بعده" (1).

3. زعم عروة بن الزبير ان عائشة حدثته فقالت: كنت عندج النبي
(ص) فأقبل العباس وعلي فقال: يا عائشة إن سرك ان تنظري إلى
رجلين من أهل النار فانظري إلى هذين قد طلعا، فنظرت فإذا
العباس وعلي بن أبي طالب (2).

وعروة هذا " كان من المشهورين بالبغض والعداء لأمير المؤمنين
(ع) وقد وصفه اخص تلامذته به – وهو الزهري- بوضع الحديث
للنيل من علي (ع) " (3).

قال مَعَمَر: كان عند الزهري حديثان عن عروة عن عائشة في

(1) الشيعة والحاكمون، ص 49-50.

(2) الإمام شرف الدين، النص والإجتهد، ص 368 (عن شرح النهج لابن ابي الحديد).

(3) علي الميلاني، خطبة علي ابنة ابي جهل، ص 37.

علي(ع)، فسألته عنهما يوماً فقال: ما تصنع بهما وبحديثهما؟ الله أعلم بهما! إني لأتھمهما في بني هاشم(1).

والحديث الأول هو بحسب رواية الزهري: ان عروة بن الزبير حدثه فقال: حدثني عائشة قالت: كنت عند رسول الله(ص)، إذ أقبل العباس وعلي، فقال لي (ص) يا عائشة إن هذين يموتان على غير ملتي. او قال على غير ديني(2).

4. اما عمرو بن العاص فيقول: سمعت رسول الله (ص) يقول : إن آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء انما ولي الله وصالح المؤمنين(3).

وحتى نتعرف قليلاً على عمرو بن العاص ننقل ما ذكره الشيخ مغنية عن كتاب ربيع الأبرار للزمخشري حيث يقول: " ان النابغة ام عمرو بن العاص كانت بغياً فوقع عليها ابو لهب وامية بن خلف وهشام بن المغيرة وابو سفيان بن حرب والعاص بن وائل، فأنتت بعمرو وادعاه الأربعة فقالت امه هم من العاص ولما قيل لها: لماذا إخترت العاص؟ قالت: كان ينفق علي وعلي أولادي أكثر منهم، وكان عمرو اشبه بأبي سفيان. وقد اتفق المفسرون على أن العاص قال: اني لأشأناً محمد الأبتري، فأنزل الله فيه "ان شأنك هو الأبتري".

يقول الشيخ مغنية: كان عمرو بن العاص من الذين عادوا النبي وآذوه، وكادوا له وكذبوه، وقاتله مع جيوش الشرك وهجاه بسبعين

(1) م. ن.

(2) الإمام شرف الدين النص والاجتهاد، ص 368.

(3) م. ن.

بيتاً من الشعر فقال رسول الله: اللهم اني لا اقول الشعر ولا ينبغي لي اللهم العنه بكل حرف الف لعنة... وذهب إلى النجاشي ليأتي بالمسلمين إلى مكة ويعذبهم المشركون على إسلامهم واتباعهم دين الله ورسوله وحرّض على قتل عثمان، ثم انتحل دمه مع من انتحل" (1).

ب- شتم الإمام علي (ع) وسبه:

يروى الطبري ان معاوية لما استعمل المغيرة بن شعبة على الكوفة سنة إحدى واربعين واقره عليها دعاه وقال له : قد اردت ايصاءك بأشياء كثيرة انا تاركها اعتماداً على بصرك، ولست تاركاً ايصاءك بخصلة: لا تترك شتم علي وذمه والترحم على عثمان والإستغفار له" (2).

وقد قام معاوية بسب علي بنفسه وكتب إلى البلدان يأمر ولاته وعماله بسب علي فقامت الخطباء في كل مكان وعلى كل المنابر يسبون علياً ويبرأون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته، وقد جهد معاوية ليجعل من سب الإمام سنة متبعة لدى الأمة (3) ، وقد أراد من خلال ذلك ايجاد الفرقة بينهم وبين الأمة سعياً منه لإبعادهم عن اية قدرة على التأثير في مجريات الأمور على المستويات الدينية والاجتماعية والسياسية حتى يبقى الوحيد الذي يؤثر في مسرح الأحداث وصناعة المستقبل.

(1) الشيعة والحاكمون، ص 53.

(2) تاريخ الطبري، حوادث سنة 51 هـ.

(3) الشيعة والحاكمون، ص 71، (عن شرح النهج ابن ابي الحديد).

ولذا عندما يطرح على معاوية هذا السؤال: لقد بلغت ما أملت، فلو كففت عن سب علي؟ فبماذا أجاب؟ " لا حتى يربو عليه الصغير ويهرم عليه الكبير، ولا يذكر له ذاكرة فضلاً"⁽¹⁾.

إن هذا الجواب يفصح عن الهدف الحقيقي لمعاوية لانه يريد للأمة ان تبتعد عن أهل البيت (ع) على كافة المستويات الشعورية والتشريعية والإجتماعية... لأن السب والشتم موقف ليس فقط من علي (ع) بل مما يمثله علي (ع) من عقيدة ونهج لم يكونا محل تقدير واحترام من معاوية وعماله.

وقد عمل الإمام الحسين (ع) على مواجهة هذا العمل المشين فشرط على معاوية في وثيقة الصلح ألا يشتم علياً فلم يجبه إلى ذلك، فطلب عندها الحسن (ع) ألا يسمعه شتم أبيه لكن معاوية لم يف ببنود الصلح بل شتم علياً والحسن على منبر الكوفة في حضور سيدي شباب أهل الجنة، وهذا ما حدا بالحسن (ع) إلى الرد عليه وفضحه امام الملأ.

يقول الشيخ المفيد في كتابه الإرشاد:

"لما استتمت الهدنة على ذلك - اي على الشروط التي اشترطها الحسن(ع) وهي بترك سب امير المؤمنين (ع) والعدول عن القنوت عليه في الصلاة وغير ذلك"- سار معاوية حتى نزل بالنخيلة وكان ذلك يوم جمعة فصلى بالناس ضحى النهار، فخطبهم وقال في خطبته:

إني والله ما قاتلتكم لتصلّوت ولا لتصوموا ولا لتحجوا ولا لتزكوا،

(1) م ن ، ص 365 (عن شرح النهج).

انكم لتفعلون ذلك ولكني قاتلتكم لأتأمر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وانتم له كارهون، ألا وإني كنت منيبت الحسن واعطيته اشياء، وجميعها تحت قدمي، لا أفي بشيء منها له.

ثم سار حتى دخل الكوفة فأقام بها اياماً، فلما استتمت البيعة له من أهلها صعد المنبر فخطب في الناس وذكر أمير المؤمنين (ع) فقال منه ونال من الحسن وكان الحسن والحسين صلوات الله عليهما حاضرين، فقام الحسين ليردّ عليه فأخذ بيده الحسن فأجلسه ثم قام فقال:

" ايها الذاكر علياً أنا الحسن وابي علي، وانت معاوية وابوك صخر، وامي فاطمة وامك هند، وجدتي رسول الله وجدك حرب، وجدتي خديجة وجدتك قتيلة، فلعن الله اخملنا ذكراً والأمنا حسباً وشرناً قدماً واقدمنا كفراً ونفاقاً، فقال طوائف من أهل المسجد: آمين آمين"(1).

بل إن معاوية حاول حمل بعض الشخصيات على سب علي (ع) والبراءة منه فقد طلب ذلك من الأحنف بن قيس وعقيل بن أبي طالب فلم يفلح في مسعاه، وهو ما يدل على أنه كان هدفاً مقصوداً ومصمماً عليه بجد واصرار من تلك السلطة.

ويروي عامر بن سعد بن أبي وقاص فيقول: امر (اي معاوية) سعد بن أبي وقاص فقال له: ما منعك ان تسب ابا تراب؟ اما ما ذكرت (القائل سعد) ثلاثاً قالهن له رسول الله فلن أسبه، لأن تكون لي واحدة منهن أحب إلي من حمر النعم، سمعت رسول الله (ص) يقول له وقد خلفه في بعض

(1) ج 2، ص 14 - 15.

مغازيه، فقال له: يا رسول الله خلفتني مع النساء والصبيان؟ فقال رسول الله (ص) اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبوة بعدي، وسمعته يقول يوم خيبر: لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله فتناولنا لها فقال أدعو لي علياً، فأتي به أرمد فبصق في عينيه ودفع الراية إليه ففتح الله عليه، ولما نزلت هذه الآية: " **قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم..** " دعا رسول الله علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال اللهم هؤلاء اهلي"(1).

ج - لعن الإمام علي (ع):

فضلاً عن السب والشتم فقد عمل معاوية على جعل لعن أمير المؤمنين سنة تستن بها الأمة، وقد لعن الإمام علي (ع) في قنوت الصلاة وعلى المنابر في كل عيد وجمعة جاعلاً العن جزءاً من خطبة الجمعة والعديد من خطبته وامتد ذلك ليحول اللعن إلى سنة يستن بها المسلمون، بل تحولت قضية اللعن إلى مبرر تستسيغ معه السلطة قتل المسلمين وصحابة رسول الله (ص) الذين رفضوا هذه البدعة وقاوموا هذه السياسة ادراكاً منهم للمخاطر التي تترتب عليها(2).

نعم ولقد استشهد بسبب هذه السياسة عدة من اصحاب علي (ع) الذين رفضوا ان يُلعن الإمام علي المنابر ومن هؤلاء حجر بن عدي ورشيد الهجري وصيفي بن فسيل... وكان حجر بن عدي قد وفد على النبي (ص) وشهد معه حروباً عديدة، ولكن لما انكر على زياد بن أبيه لعن الإمام (ع) بعث به وبجماعته إلى الشام فأمر معاوية بقتل من لم يتبرأ

(1) الإجتهد في مقابل النص، ص 364.

(2) الإجتهد في مقابل النص، ص 363.

من الإمام علي (ع) وقتل حجر على ذلك(1)، اما رشيد الهجري فقد عرض عليه زياد البراءة واللعن فأبى ان يجيبه إلى طلبه فقطع يديه ورجليه ولسانه وصلبه خنقاً في عنقه(2).

اما الصيفي بن فسيل فإنه جيء به إلى زياد، فقال له : يا عدو الله ما تقول في ابي تراب؟

قال الصيفي : ما اعرف ابا تراب.

قال زياد : ما اعرفك به؟

قال : ما اعرفه.

قال زياد : اما تعرف علي بن ابي طالب؟

قال : بلى.

قال زياد: فذاك ابو تراب.

قال : كلا ذاك ابو الحسن والحسين.

قال زياد لجلالوزنه: عليّ بالعصا فأتني بها، فالتفت إلى صيفي، وقال : ما قولك؟

قال : احسن قول انا قائله في عبد من عباد الله المؤمنين.

(1) معالم المدرستين : ج 2، ص 50.

(2) الشيعة والحاكمون، ص 81.

فقال زياد: اضربوه حتى يلتصق بالأرض، فضربوه حتى لزم الأرض، وعندها قال له زياد: ما تقول في علي؟

قال : والله لو شرحنتي بالموسى والمدى ما قلت إلا ما سمعت مني.

قال زياد : لتلعننه.. او لأضربن عنقك.

قال : اذن والله لتضربها قبل ذلك(1).

2- المدرسة الفكرية للسلطة الأموية:

قلنا أن السلطة - وبسبب اقتران السياسي بالديني - قد عنت بانتاج بعض المفاهيم والأفكار الدينية وبتبني مفاهيم وافكار اخرى من اجل ان تكون بمثابة مادة تستخدم في الخطاب السياسي التبريري وفي الخطاب الثقافي للمفاهيم الدينية ولتراث رسول الله (ص).

إذا عدنا إلى تلك المادة المعرفية التي كانت تعتمد عليها السلطة الأموية والتي نقلها إلينا التاريخ، وحاولنا تحليل تلك المادة من اجل الوقوف عند اهم مكوناتها، فإننا نرصد مجموعة من العناصر المعرفية التي تشكل مجتمعة الخطاب الثقافي للسلطة، اما اهم تلك العناصر والمكونات فهي ما يلي:

(1) م ن ، ص 78.

1- حرمة الخروج على الحاكم الظالم والجماعة الضالة:

ان السلطة الأموية كان يعنيها كثيراً ان يترسخ هذا المفهوم في الوعي الديني للمجتمع الإسلامي، لأنه يعود بفائدة مباشرة وكبيرة على تلك السلطة إذ انه يحدّر المجتمع ويكبل يديه ليمنعه من التحرك الثوري والعمل التغييرى للواقع الفاسد والمنحرف.

إن أهم ما يخدم السلطة الظالمة هو هذا المفهوم لأنه ينجز لها ما قد تعجز عن تحقيقه بالقوة والغلبة والقهر، ولذا فإنها تحاول بإسم الدين ان تحرم الخروج عليها ومقاومة الفساد والأخذ بزمام الإصلاح، مع ان الإصلاح – كما بينا – هو هذف الأديلن ومشروع الأنبياء ، ولذلك نجد ان عبارات من قبيل الخروج على الإمام ومعصيته وشق عصا المسلمين ومفارقة الجماعة قد اصبحت محل عناية فائقة من قبل رموز السلطة في محاججاتهم السياسية مع المعارضة وقوى الإصلاح وقد ذكرنا سابقاً نماذج من تلك المحاججات.

إننا نجد ان التراث الديني يزخر بمجموعة من الأحاديث التي نقلها ائمة اهل البيت (ع) عن رسول الله (ص) تدعو إلى مقاومة الظلم وإزالة الفساد والتي ذكر بعضها سيد الشهداء (ع) حيث قال: " ايها الناس ان رسول الله (ص) قال : من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرام الله ناكثاً عهده مخالفاً لسنة رسول الله يعمل في عباد الله بال، ثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله ان يدخله مدخله..."(1).

وقد ورد عن رسول الله (ص) : " افضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر"(2).

(1) تاريخ الطبري، ج 3 ، ص 307.

(2) وسائل الشيعة ، كتاب الأمر بالمعروف..، الباب الثاني، ج 1.

فضلاً عما جاء في القرآن الكريم من قوله تعالى:

﴿ ولا تركزوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ﴾⁽¹⁾.

ويقول تعالى: ﴿ اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم
لقدير، الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله ﴾⁽²⁾.

إن هذه النصوص الدينية وغيرها كانت تمثل عقبة كأداء امام تلك
السياسات الظالمة للسلطة وكانت تمثل مشكلة كبيرة لا يمكن تجاوزها إلا من
خلال الدين وباسم الدين.

أن مضمون بعض الأحاديث قد كان محل عناية من الجهاز الثقافي
للسلطة من قبيل هذا الحديث الذي ذكر عن لسان ام سلمة عن النبي (ص):

" قال : إنه يستعمل عليكم امراء فتعرفون وتنكرون فمن كره فقد برئ
ومن انكر فقد سلم ولكن من رضي وتابع، قالوا يا رسول الله () ألا نقاتلهم؟
قال: لا ما صلوا"⁽³⁾.

وعن حذيفة بن اليمان عن رسول الله (ص) انه قال:

"يكون بعدي ائمة لا يهتدون بهدائي ولا يستنون بسنتي وسيقوم فيهم
رجال قلوبهم الشياطين في جثمان انس، قلت: كيف أصنع يا رسول الله (ص)
إن أدركت ذلك؟ قال: تسمع وتطيع الأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك،
فاسمع واطع"⁽⁴⁾.

(1) هود ، 113.

(2) الحج، 39.

(3) لو بايع الحسين، ص 53 (عن الجامع لأحكام القرآن للقرطبي).

(4) م ن ، ص 55-56 (عن صحيح مسلم).

بل إن بعض فتاوى الفقهاء قد صبّت في الخانة نفسها فهذا الحسن البصري يقول: تجب طاعة ملوك بني أمية وإن جاروا، وإن ظلموا والله لما يصلح بهم أكثر مما يفسدون"(1).

وفي عبارة اخرى: " لا يستقيم الدين إلا بهم وإن جاروا وإن ظلموا والله لما يصلح بهم أكثر مما يفسدون"(2).

مع ان الفقيه البصريه نفسه عندما يتحدث عن السلطة الأموية وتابعيها من أهل الشام يقول: " .. قبّحهم الله وبرحهم! أليس هم الذيم احلّوا ما حرم رسول الله (ص) يقتلون اهله ثلاثة أيام وثلاث ليال! قد أباحوهم لأنباطهم وأقباطهم، يحملون الحرائر ذوات الدين! لا يتناهون عن انتهاك حرمة! ثم يخرجون إلى بيت الله الحرام، فهدموا الكعبة وأوقدوا النيران بين أحجارها واستارها، لعنة الله وسوء الدار"(3).

إن ذاك المفهوم الذي يتبناه الحسن البصري ويفتي به هو ما نجده عند شمر بن ذي الجوشن قاتل ابن بنت رسول الله (ص) إذ انه كان يدعو الله تعالى في المسجد ويقول: " اللهم إنك شريف تحب الشرف، وإنك تعلم أنني شريف فاغفر لي، قلت(4) كيف يغفر الله لك، وقد اعنت على قتل ابن رسول الله؟ قال: ويحك فكيف نصنع؟ إن أمراءنا هؤلاء أمرونا بأمر فلم نخالفهم، ولو خالفناهم كنّا شراً من هذه الحمر الشقاة"(5).

إن السلطة الأموية في صناعتها المعرفية لم تستفد من شيء كاستفادتها

(1) م ن، ص 100 (عن الحكومة في الإسلام).

(2) ريشهري محمد، رهبري در اسلام، ص148(عن المذاهب الإسلامية،ص89).

(3) لو بايع الحسين، ص 99-100(عن تاريخ الطبري).

(4) القائل هو راوي للخبر.

(5) تاريخ ابن عساكر ج 6، ص338، وميزان الاعتدال للذهبي، ج1، ص449.

من هذا الحشد من المفاهيم الذي كان له اثر بالغ في تشكيل الوعي الديني- السياسي للمجتمع الإسلامي والذي استطاع ان يروّض بعض فئات ذلك المجتمع، وهو بالحد الأدنى قد استطاع ان يحدّد بعض القوى عن الإنخراط في مشروع مواجهة الفساد الأموي ويفقد هذا المشروع الكثير من قوته، وهو ما ادى إلى تنعم السلطة الأموية بهدوء أكثر، منحها الجرأة على أن تزداد غياً وتفرد في ظلمها وتتجرأ على ارتكاب اشنع وافظع المحرمات، لماذا؟ لأنها مهما فعلت يحرم الخروج عليها ولأن في مقاومتها سخط الله وفي القعود عن قتالها رضاه، فهي تأمن ردة الفعل من هذا المجتمع الذي تتحرك فيه، لأنه مخدّر بمفاهيم تنسب إلى الدين وهي ابعد ما تكون عنه، لكنه مع ذلك استطاعت تلك المفاهيم ان تفعل فعلها وان تجني مكاسب عديدة لصالح السلطة ومن أجل ذلك قال بعض الباحثين انه لولا لسان الحسن البصري وسيف الحجاج لزالّت دولة المروانيين⁽¹⁾ (نسبة إلى مروان بن الحكم خليفة يزيد بن معاوية).

إن السلطة الأموية كان يصعب عليها أن تتستر امام استهاتها بالقيم وانتهاكها للدين وممارستها للظلم، إنّ هذه الحقيقة لم تكن لتخفى على ابناء المجتمع الإسلامي وكان عليها ان تقنع ذلك المجتمع بدينية تلك الممارسات والأعمال، فكان من الأسهل عليها ان تقول : صحيح هذه الأعمال لا يقبلها الدين، لكن يحرم عليكم الخروج علينا ومقاومتنا ويجب عليكم طاعتنا وليس من الصحيح دينياً نقض بيعتنا وإلا كنتم شراً من هذه الحمر الشقاة.

(1) رهبري در اسلام، ص 148، (عن كتاب "مع الله" لمحمد الغزالي).

إن شمرأ كان واحداً من تلاميذ تلك المدرسة الذين تخرجوا منها بامتياز وكان شخصاً وفيأ لها ولعب دورأ كبيرأ في حدوث واقعة كربلاء وقتل الحسين (ع)، لأنه تحرم مخالفة امراء الجور والظلم.

ومن هنا نستطيع ان نطل على ذلك الأثر الأخطر لذاك الحشد من المفاهيم وهو انه في الوقت الذي اخرج بعض القوى من معادلة الصراع واضعف الجبهة المواجهة للسلطة الأموية، فإنه استطاع ان يمنح جبهة السلطة قوة اكثر من خلال انضمام عناصر وتيارات متعددة إليها تحت عنوان وجوب طاعة الحاكم حتى لو كان ظالماً وحرمة نقض بيعته حتى لو كان ظالماً، ومعنى الوفاء بالبيعة هو ايضاً لزوم طاعته والإنقياد له.

وهنا بعد ان تحدثنا عن ذاك الحشد من المفاهيم الذي كان له تلك التداعيات الخطيرة على مستوى تشكيل الوعي الديني _ السياسي للمجتمع الإسلامي من المناسب ان نبين مفصلاً تلك المفاهيم لنعرف العناصر المشكلة لذلك الحشد:

1. حرمة الخروج على الحاكم الظالم: وقد تحدثنا عنه تفصيلاً وذكرنا شواهد عديدة على استخدام السلطة له الي عنت به كثيراً وجلب لها الكثير من المكاسب.

2. وجوب طاعة الحاكم الظالم: وقد كان يمثل هدفاً أرقى لتلك السلطة من جهة أن اقصى ما يوصل إليه تحريم الخروج على الحاكم هو تحييد بعض العناصر من الجبهة المناوئة للسلطة، لكن وجوب الطاعة يقود إلى جعل المجتمع اداة سهلة توظفها السلطة لبلوغ غاياتها ومآربها.

3. حرمة نقض البيعة للحاكم الظالم: إن البيعة بما هي عهد على الطاعة فإنها تعني في المقام الأول وجوب طاعة الحاكم ولو كان ظالماً، لكن هنا لا بما هو حاكم بل بما هو مبایع، اي بما هو محل لفعل تعهد بطاعته ونصرته والإنقياد له.

4. حرمة الخروج على الجماعة وشق عصا المسلمين: إن السلطة قد اعطت في نوع قدسية لمفهوم الجماعة وبالتالي عملت على توظيفه في مواجهة المشروع المعارض لها، والمقصود الواقعي بالجماعة هنا جماعة السلطة إذ ان المشروع المناوئ للسلطة يملك جماعته لكنها ليست الجماعة المقصودة في اللغة السياسية للسلطة، وقد أشرنا إلى موارد عديدة لاستخدام هذا المفهوم ونضيف هنا ما قاله معاوية لعبد الله بن عمر عندما سأله عن سبب تنصيب يزيد خليفة: " اني احذرك ان تشق عصا المسلمين وتسعى في تفريق ملئهم وان تسفك دماءهم.." (1).

2- رفع المكانة المعنوية والعلمية لرموز مدرسة الخلافة:

في الوقت الذي سعت السلطة الأموية لتحطيم المكانة العلمية والمعنوية لأهل البيت (ع) فإنها سعت في المقابل إلى رفع المكانة العلمية والمعنوية لرموز مدرسة الخلافة لما كانت تراه من انها تشكل نوع من امتداد لدولة الخلافة على المستوى السياسي والمعرفي، ولذا فإن القوة الدينية والسياسية لذاك التاريخ الذي ترى انتماءها إليه واستمراره فيها سوف يعزز من المكانة الدينية والسياسية لهذه السلطة في مقابل مدرسة الإمامة ونهجها السياسي.

(1) ابن قتيبة الإمامة والسياسة، ج 1؛ ص 210.

كتب معاوية إلى عماله ان " انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه واهل ولايته والذين يروونفضائله ومناقبه فأدنو مجالسهم وقربوهم وأكرمواهم واكتبوا إليّ بكل ما يروي كل رجل منهم واسمه واسم ابيه وعشيرته، ففعلوا ذلك حتى اكثروا في فضائل عثمان ومناقبه لما كان يبعث إليهم معاوية من الصلوات والكساء والحباء والقطنع ويفيضة في العرب منهم والموالي، فكثر ذلك في كل مصر، وتنافسوا في المنازل والدنيا، فليس يجيء احد مردود من الناس عاملاً من عمال معاوية فيروي في عثمان فضيلة او منقبة إلا كتب اسمه وقربه وشفعه فلبثوا بذلك حيناً، ثم كتب إلى عماله: إن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفي كل وجه وناحية فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين.."(1).

وعليه فإن معاوية عمل على دفع بعض الرواة للإكثار من الرواية في فضائل الصحابة ورموز مدرسة الخلافة لأنه كان يدرك ذلك الخلاف السياسي والإختلاف المعرفي بين مدرسة الإمامة ومدرسة الخلافة.

أن معاوية قد جعل من المطالبة بدم عثمان مطية للوصول إلى الخلافة التي كان الأمويون يدعون انها من حقوقهم باعتبار ان هذه الخلافة قد كانت في عثمان وانه قُتل مظلوماً وهم ورثته فيجب ان تنتقل إليهم لأنهم قرابته ولحمته، ولذا سعت السلطة الأموية من اجل ان تعطي هالة دينية مميزة لرموز مدرسة الخلافة عامة وللخليفة الثالث خاصة لتضيف إلى

(1) معالم المدرسين، ج 2، ص55(عن شرح النهج لابن أبي الحديد).

ذلك ادعاءها وراثته الخلافة من الخليفة عثمان لما يمكن ان يجنيه ذلك من مشروعية سياسية ومن تبرير لخروجهم عن السلطة الشرعية والخلافة النبوية المتمثلة آنذاك بالإمام علي (ع)⁽¹⁾.

3- نظرية عدالة الصحابة:

اشرنا سابقاً إلى أن السلطة الأموية كانت تسعى إلى إضفاء المشروعية الدينية على كيانها باعتبار ان هذه المشروعية تستدعي المشروعية السياسية وقد حاولت الإستفادة من بعض المفاهيم كمفهوم الصحابي لما يمكن أن يساهم به في قضية المشروعية.

وعليه فقد عمل معاوية على تعويم مفهوم الصحابي وإعطائه بعداً دينياً وتقديمه بهالة من القدسية ليمتلك قدرته على التأثير في نفوس المسلمين ووعيمهم، لقد أراد معاوية أن يعطي سلطة دينية لهذا المفهوم، لأنه لم يكن يمتلك سوى هذا السلاح من المشروعية الدينية – كصفة يمكن ان يمنحها نفسه على مستوى علاقته بشخص رسول الله (ص) – لقد أدرك معاوية كل ذلك السجال الديني – السياسي الذي حصل في العقود اللاحقة ولا شك انه قد اخذ منه الدروس، إنَّ درس المشروعية الدينية – السياسية لم يكن الدرس الذي يقبل ان تنهون فيه السلطة، ولذا فإنها عندما فتشت في رحل المشروعية فأنها لم تجد – في الأوصاف التي تنطبق على معاوية – إلا فكرة الصحابي كسلاح يمكن ان يستخدم في إعطاء صبغة دينية لسلطانها وقوة لبيانها وتأثيراً في الخطاب الموجه للمجتمع الإسلامي ولذا كان فيما كتبه معاوية إلى عماله:

(1) الأمويون والخلافة، ص 13.

".. إذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولي ولا تتركوا خبراً يرويه احد من المسلمين في ابي تراب إلا وتأتوني بمناقض له في الصحابة، فإن هذا احب إلي وأقر لعيني، وأدحض لحجة ابي تراب وشيعته.." (1).

لقد اراد معاوية إذن ان يشهر فضائل الصحابي وألا يترك رواية تتحدث عن فضل الإمام علي(ع) ومكانته وإلا يريد في مقابلها رواية تتحدث عن فضيلة الصحابي ومكانته، لماذا؟ لأنه – في تعبيره – ادحض لحجة ابي تراب وشيعته – واية حجة هذه الحجة؟

لا يمكن فصل كتاب معاوية عن تلك المواجهة على مستوى المشروعات الدينية – السياسية بين المشروع الأموي ومدرسة الإمامة، بل يُعد هذا الكتاب احد مظاهر تلك المواجهة، إذ ان معاوية كان يدرك تلك المناقب الكثيرة التي نقلت عن رسول الله (ص) في حق علي (ع) وتلك المآثر التي طفحت بها السنة الرواة، وهذا ما كان يسهم في تعميق ازمة المشروعات الدينية – السياسية التي كانت السلطة الأموية تسعى لتلافيها من خلال أكثر وسيلة، ولذا فإن الوسيلة المثلى لمواجهة ذلك السيل الجارف من روايات الفضائل – التي كانت سلاحاً فتاكاً في السجال الديني السياسي – هو ان تعمل الماكنة الروائية للسلطة على انتاج نموذج الرواية المقابلة، فلا تبقى من رواية إلا ويكون في مقابها رواية ناقضة لأن هذا " ادحض لحجة ابي تراب وشيعته"، اي دحض لمبدأ المكانة العلمية والدينية لأهل البيت (ع) ولنتائج هذا المبدأ على المستوى السياسي والإجتماعي، انها حرب الرواية التي ارادتها السلطة من اجل مواجهة مدرسة الإمامة.

(1) معالم المدرستين، ج 2، ص55 (عن شرح النهج لابن ابي الحديد).

4-الجبر:

إن ما يعنيه مفهوم الجبر هو ان الله تعالى يجبر الإنسان على أفعاله فيكون الإنسان مسلوب الإختيار، اي إنه يصبح في هذه الحالة بمثابة آلة تحركها القدرة الإلهية وتسيرها بطريقة لا تمتلك فيها القدرة على الإستجابة وعندما بل يكون فاقداً لحرية واختياره.

ان أزمة المشروعية الدينية – السياسية كانت تبتفر السلطة الأموية لتقديم المبررات النظرية التي تثبت حقهم في الخلافة وللتصدي لقيادة الدولة الإسلامية، يقول د. حسين عطوان: " يظهر ان الأمويين احسوا ان ما روجوه من انهم استوجبوا الخلافة بقرابتهم من عثمان لا يشكل لهم نظرية متميزة في الخلافة، لأن حقهم في الطلب بدمه لا يجعل لهم الحق في وراثة الخلافة عنه ولأن ما روجوه كان اضعف من ان يقابل نظريات الأحزاب الأخرى في الخلافة، مثل نظرية الشورى عند الخوارج والقدرية ومرجئة الجبرية، ونظرية وراثة الرسول عند الهاشميين من العلويين والعباسيين ولذلك مالوا إلى مذهب الجبر في الخلافة وعولوا عليه لإثبات حقهم فيها وتعلقوا به لتصحيح احتيازهم لها، فقد استقروا على ان الله اختارهم للخلافة وآتاهم الملك وانهم يحكمون بارادته ويتصرفون بمشيئته، واحاطوا خلافتهم بهالة من القداسة، واسبغوا على انفسهم كثيراً من الألقاب الدينية، إذ كان معاوية بن أبي سفيان في نظر انصار الأمويين خليفة الله في الأرض والأمين المأمون، وكان يزيد بن معاوية امام المسلمين.." (1).

لقد كانت السلطة الأموية تحتاج إلى ما تبرر به افعالها وسياساتها

(1) الأمويون والخلافة، ص19.

التي تتنافى مع ادنى درجات الوعي الديني الذي كان يمتلكه المجتمع الإسلامي، ولذا فقد عمل معاوية على استخدام هذه العقيدة والترويج لها في محاولة منه لإسكات تلك الأصوات المعارضة لفعله ولسياسته وخصوصاً فيما يرتبط بتصيب ولده يزيد خليفة على المسلمين، بل وفي ادعائه نفسه لخلافة المسلمين وإمامتهم، وقد نقل القاضي عبد الجبار المعتزلي عن الشيخ ابي علي الجبائي انه قال:

"إن أول من قال بالجبر وظهره معاوية ، وانه اظهر ان ما يأتيه بقضاء الله ومن خلقه، عذراً فيما يأتيه، ويوهم انه معيب، وان الله جعله إماماً وولاه الأمر، وفشا ذلك في ملوك بني أمية"(1).

إن المشكلة الكبيرة التي كانت تواجه معاوية هي قضية تنصيب ولده يزيد خليفة على المسلمين إذ ان يزيد كان معروفاً بفسقه وفجوره ومجونه وكان من الصعب على المجتمع الإسلامي ان يقبل بخلافة يزيد، لذا كان على معاوية ان يحرف في الدين من أجل ان يبرر تولية ابنه.

ينقل إلينا التاريخ ان معاوية قد قصد المدينة من أجل تهيئة الظروف المناسبة لولاية يزيد واخذ البيعة له، وقد التقى في سبيل ذلك بعائشة فكان مما قاله لها:

"..إن امر يزيد قضاء من القضاء، وليس للعباد الخيرة من امرهم"(2).

وقد استخدم هذا الأسلوب ايضاً مع عبد اله بن عمر عندما سأله عن سبب توليته يزيد فقال: " .. اني احذرك ان تشق عصا المسلمين،

(1) السبحاني، الملل والنحل، ص261 (عن المغني).

(2) م ن ، ص240 (عن الإمامة والسياسة).

وتسعى في التفريق ملئهم وان تسفك دماءهم، وان امر يزيد قد كان قضاء من القضاء وليس للعباد خيرة من أمرهم.."(1).

إن هذا الأسلوب التبريري – وايضاً التخريبي – الذي استخدمه معاوية يظهر انه قد اصبح مبدأً معمولاً به لدى كل او معظم رموز السلطة الأموية، اي أن معاوية قد رسّخ مبدأ الجبر وعممه، وهو بعلمه هذا يكون قد فتح للسلطة الباب على مصرعيه من اجل ارتكاب افطع وأشنع الجرائم طالما ان الخطاب التبريري حاضر من اجل ان يرفع عن السلطة ورموزها كافة اشكال المسؤولية، باعتبار ان ما حصل انما هو قضاء الله ولا محيص عنه، ولذا فإنه لو لم يكن هناك ارادة له من الله لما كان حصل ما حصل، إن هذه الشبهة الكلامية – السياسية كانت حاضرة ايضاً في ذلك الحوار الذي دار بين يزيد والإمام زين العابدين (ع)، ينقل الشيخ المفيد انه لما أدخل علي بن الحسين (ع) وعيال الحسين على يزيد قال له يزيد: يا بن حسين، ابوك قطع رحمي وجهل حقي ونازعني سلطاني، فصنع الله به ما قد رأيت، فقال علي بن الحسين(ع): ﴿ ما اصاب من مصيبة في الأرض ولا في السماء إلا في كتاب من قبل ان نبرأها ان ذلك على الله يسير ﴾ (2).

وكان الإمام زين العابدين قد واجه المنطق نفسه من عامل يزيد على الكوفة اعني به عبید الله بن زياد، اذ انه عرض عليه علي بن الحسين (ع) فقال له: من انت؟

فقال: انا علي بن الحسين.

فقال: أليس قد قتل الله علي بن الحسين؟

(1) م ن.

(2) الإرشاد، ج 2، ص 120.

فقال له علي (ع): قد كان لي أخ يسمى علياً قتلته الناس.

فقال له ابن زياد: بل الله قتلته.

فقال علي بن الحسين (ع): ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾⁽¹⁾.

ويذكر أيضاً الشيخ المفيد انه "لما وصل رأس الحسين (ع).. جلس ابن زياد للناس في قصر الإمارة واذن للناس اذنأ عاماً وامر باحضار الرأس فوضع بين يديه فجعل ينظر اليه ويبتسم وفي يديه قضيب يضرب به ثناياه وكان إلى جانبه زيد بن أرقم صاحب رسول الله (ص) - وهو شيخ كبير - فلما رآه يضرب بالقضيب ثناياه قال له: ارفع قضيبك عن هاتين الشفتين، فوالله الذي لا إله غيره لقد رأيت شفتي رسول الله (ص) عليهما مالا احصيه كثرة تقبلهما، ثم انتحب باكياً، فقال له ابن زياد: ابكى الله عينيك اتبكي لفتح الله والله لولا انك شيخ خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك، فنهض زيد ابن ارقم من بين يديه وصار إلى منزله"⁽²⁾.

إنه بالنسبة إلى ابن زياد فتح الله وفعله وبالتالي لا ينبغي الاعتراض على فعله تعالى.

ويبدو هذا المنطق واضحاً في حوار ابن زياد مع السيدة زينب (ع) اذ انه توجه اليها قائلاً: " الحمد لله الذي فضحك وقتلكم وأكذب احدوثتكم".

فقالت زينب: الحمد لله الذي أكرمنا بنبيه محمد (ص) وطهرنا من الرجس تطهيراً وإنما يفتضح الفاسق ويكذب الفاجر وهو غيرنا والحمد لله.

فقال ابن زياد: كيف رأيت فعل الله بأهل بيتك؟

(1) م ن ، ص 116.

(2) م ن ، ص 114-115.

قالت: " كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاجون إليه وتختصمون عنده.."(1).

اما عمر بن سعد فإنه لما إعترض عليه عبد الله بن مطيع العدوي قائلاً: اخترت همدان والري على قتل ابن عمك، فإنه اجاب بقوله:
"كانت امور قضيت من السماء"(2).

إن السلطة الأموية ولتبرير كل أفعالها التي لا تتسجم مع الدين ارادت ان تقدم إلى الرأي العام مادة معرفية سامة بلباس ديني من اجل ان ترفع عن نفسها مسؤولية ما يحصل لأنه قضاء من القضاء، وصنع الله به، وفتح الله، وفعل الله بأهل بيتك، وقتل الله علي بن الحسين، وامور قضيت من السماء، اما السلطة الأموية فإن ما كانت تفعله هو أنها فقط كانت تنفذ ارادة الله تعالى.

يقول أحمد محمود صبحي في كتابه نظرية الإمامة: " إن معاوية لم يكن ليدعم ملكه بالقوة فحسب ولكن بايديولوجية تمس العقيدة في الصميم، ولقد كان يعلن في الناس ان الخلافة بينه وبين علي (ع) قد احتكما فيها إلى الله فقضى الله له على علي وكذلك حين اراد ان يطلب البيعة لابنه يزيد من اهل الحجاز اعلن ان اختيار يزيد للخلافة كان قضاء من القضاء وليس للعباد خيرة في امرهم، وهكذا كاد ان يستقر في اذهان المسلمين ان كل ما يأمر به الخليفة – حتى لو كانت طاعة الله في خلافه – فهو قضاء من الله قد قدر على العباد"(3).

(1) م ن ، ص115.

(2) طبقات ابن سعد، ج 5، ص113.

(3) السبحاني الملل والنحل، ج 1، ص 240.

5- الإرجاء:

كنا نتحدث عن ان السلطة الأموية كانت تعمل على انتاج مجموعة مفاهيم تلبس لباس الديني، من اجل ان تخرق نسيج الوعي الديني للمجتمع الإسلامي في محاولة منها لتشكيل رؤية كلامية تسهم في تبرير مسلكها السياسي.

ومن تلك المفاهيم التي تبنتها السلطة الأموية وعملت على ترويجها مفهوم الإرجاء، هذا المفهوم الكلامي الذي يلغي أهمية العمل ولا يقيم له وزناً، لأن الإيمان انما هو معرفة بالقلب وتصديق باللسان والمعصية لا تضر الأيمان، ولعله لهذا السبب سُمّموا بالمرجئة اي لأنهم يؤخرون العمل عن الإيمان فلا يجعلون العمل داخلاً في مفهوم الإيمان بل يجردون هذا المفهوم عن معنى العمل، فيكون الإرجاء هنا بمعنى التأخير كما في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا ارْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ (1).

أو لعل تلك التسمية – المرجئة – مأخوذة من الرجاء اي رجاء الغفران مهما ارتكب من معاصي، لأنه ايضاً لا تضر مع الإيمان معصية، ويبدو هذا المعنى في ذلك الحوار الذي حصل بين عائشة ومعاوية إذ تقول له: " يا معاوية! قتلت حُجراً واصحابه العابدين المجتهدين! فقال معاوية دعي هذا كيف أنا في الذي بيني وبينك في حوائجك؟ قالت: صالح، قال: فدعينا وإياهم حتى نلقى ربنا" (2).

أما ظهوره بهذا المعنى الذي يهمل العمل ويبرر المعصية فهو في

(1) الأعراف، 111.

(2) صفحات من تاريخ كربلاء، ص 179 (عن الكامل في التاريخ).

زمن معاوية الذي ابرز عملاً وقولاً انه لا يضر مع الإيمان المعصية ولا ذنب، وبالتالي يمكن للحاكم ان يرتكب الجرائم ويفعل الفواحش ويقدم على الموبقات ومع ذلك فهو مؤمن لا يجوز الخروج عليه ولا مواجهته لأن كل ما يفعله من مخالفة للدين لا يضر في ايمانه شيئاً.

يقول ابن ابي الحديد في شرح النهج:

" اول من قال بال؟إرجاء المحض معاوية بن ابي سفيان وعمرو بن العاص، كانا يزعمان انه لا يضر مع الإيمان معصية، ولذلك قال معاوية لمن قال له: حاربت من تعلم واركتبت ما تعلم؟! فقال وثقت بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرَ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾⁽¹⁾.

إن معاوية كان يدرك خطورة الأعمال التي يقوم بها على المستوى الديني وعدم مقبولية تلك الأعمال التي يقوم بها في الوعي الديني العام للمجتمع الإسلامي، ولذا كان معنياً – والسلطة الأموية عامة – باستخدام سلاح الديني لمواجهة الديني، وليكون الديني في خدمة السياسي وقد عمل هذا المنطق التبريري على انتاج أكثر من وسيلة معرفية لإستخدامها حيث تقضي المصلحة السياسية ويعوزه التسويل السياسي، حتى لو كانت هذه الوسائل محكومة بالتناقض وعدم الإنسجام.

إن السلطة الأموية في الوقت الذي كانت تدرك ما يمكن ان تستجلبه تلك الصناعة المعرفية من فائدة سياسية آنية، كانت تعي ايضاً حجم المخاطر والأضرار التي سوف تتركها على سلامة المعرفة الدينية والوعي الديني للمجتمع الإسلامي، لكنها آثرت ان تتجاوز الديني بل

(1) لو بايع الحسين، ص 67. (عن شرح النهج لابن أبي الحديد).

وتضحى به خدمة لمصالح دنيوية ومحدودة، إن لم نقل انها كانت تستهدف الديني نفسه وتسعى للقضاء عليه عداوة منها لمحمد واهله وتمسكاً منها بجاهليتها الجهلاء، كما يمكن ان يستفاد من نصوص تاريخية عديدة.

6- الأخذ بثقافة اهل الكتاب والترويج لها:

إن مدرسة السلطة الأموية قد اعتمدت في مصادرها المعرفية على بعض المصادر التي لا تنتمي إلى البيئة المعرفية الإسلامية في محاولة منها لتكوين تلك المنظومة المعرفية التي تنسجم واتجاهها السياسي، وهنا نجد أن بعض الرواة قد نقل عن بعض علماء اهل الكتاب الذين اظهروا الإسلام، ومعاوية نفسه كان قد روى عن تميم الداري الراهب النصراني وكعب احبار اليهود اللذين كانا قد اظهرا الإسلام، وفسح لهما بإفشاء الأحاديث الإسرائيلية بين المسلمين، والملفت ان تميم هذا قد انتقل من المدينة إلى الشام بعد مقتل عثمان وبقي في كنف معاوية حتى توفي سنة 40 للهجرة، وكذلك كعب الاحبار فإنه لما ظهرت علامات الثورة على عثمان ترك المدينة وذهب إلى الشام ليعيش في رعاية معاوية مكرماً حتى وفاته سنة 34هـ.

والقضية لم تكن فقط قضية هذين العاملين بل قضية وسيلة اعلامية تتألف منهما ومن غيرهما كانت تعمل على ادخال عنصر الثقافة الإسرائيلية في نسيج الوعي الديني للمجتمع الإسلامي، ولذلك فإن الإمام علي(ع) قام بطردهم من مساجد المسلمين اثناء فترة حكمه لمنع انتشار تلك الثقافة الدخيلة التي تهدد الوعي الديني الإسلامي بالتشويه والانحراف، يقول السيد مرتضى العسكري:

" لم يقتصر نقل الإسرائيليات على هذين العالمين من علماء اهل الكتاب وتلاميذهما فحسب، بل قام به ثلة معهما، ومن بعدهما كذلك.. وأثروا على الفكر الإسلامي بمدرسة الخلفاء أثراً عظيماً، ومن ثم دخلت الثقافة الإسرائيلية في الإسلام وصبغته في جانب منه بلونها، ومن هنا انتشر بمدرسة الخلفاء الاعتقاد بأن الله جسم وان الأنبياء تصدر منهم المعاصي، والنظرة إلى المبدأ والمعاد إلى غيرها من أفكار اسرائيلية، وعظم نفوذ هؤلاء على العهد الأموي خاصة، وخاصة في سلطان معاوية، حيث اتخذ بطانة من النصارى امثال كاتبه سرجون وطبيبه ابن أثال وشاعره الأخطل من نصارى عصره، ومن المعلوم ان هؤلاء عندما شكلوا البلاط الأموي لم يتركوا افكارهم المسيحية واعرافهم خلفهم بل حملوها معهم إلى بلاط الخلافة الأموية، اصف إلى هذا ان عاصمة معاوية الشام كانت قبل ذلك عاصمة لنصارى الروم البيزنطيين وكانت ذات حضارة عريقة..

اما معاوية نفسه فكان قد نشأ في وسط أغلظ الجاهليات القبلية التي حاربت الإسلام واعرافه حتى أخضعها الإسلام بقوة السيف، نشأ فيها حتى صلب عوده وانتقل على كبر سنه من مكة بعد فتحها إلى المدينة ومن الجاهلية إلى الإسلام، ولم يمكث في المجتمع الإسلامي الناشئ إلا وقتاً قصيراً لا يكفي ليتطبع فيه بالطبع الإسلامي الجديد عليه ليستطيع ان يؤثر على ذلك المجتمع ذي الحضارة الرومية الذي امتدت حضارته إلى آماذ بعيدة في الدهر، بل هو الذي تأثر به.

وكان معاوية يُبعد من ذلك المجتمع من كان يعترض سبيله من صحابة تطبعوا بالطابع الإسلامي الأصيل، نظير أبي ذر وابي الدرداء وقرّاء اهل الكوفة.

كل تلكم كانت عوامل ادت إلى صيغ مدرسة الخلفاء منذ عصر معاوية بطابع ثقافة اهل الكتاب"(1).

7- عدم الاعتناء بالضوابط الدينية:

ان عدم الاعتناء بالضوابط الدينية وعدم الإلتزام بنص رسول الله (ص) وبحرمته هو من القضايا التي تبدو بمستوى كبير من الوضوح في اداء السلطة الأموية ورموزها، ابتداء من قتلهم سبط النبي (ص) إلى استباحة مدينة رسول الله (ص) ثلاثة أيام إلى هدم الكعبة وقتل الأبرياء وصحابة الرسول(ص) فضلاً عن كل تلك الموارد التي ابرزناها والتي تشير الى ذلك العمل الدؤوب للسلطة من اجل تحريف الدين وقلب المفاهيم بما ينسجم ومصالحها.

وفضلاً عما ذكر سنشير هنا إلى اهم تلك الموارد التي ضربت فيها السلطة بالأحكام الدينية عرض الجدار وسعت وراء غايات آنية رغم ما يترتب عليها من نتائج سلبية على الوعي الديني لبعض الفئات الإجتماعية:

أ. **نقض صلح الإمام الحسن:** بقد صالح الإمام الحسن (ع) معاوية بن أبي سفيان بسبب تلك الظروف التي كانت سائدة في تلك الفترة وتلك المعطيات التي كانت متوفرة، والتي فرضت على الإمام الحسن (ع) خيار الصلح الذي تم عقده على أساس جملة من الشروط التي التزم بها معاوية وتعهد الوفاء بمضمونها، بل يروي بعض المؤرخين ان معاوية

معالم المدرستين ، ج 2، ص 53-54.

ارسل الى الإمام صحيفة بيضاء مختومة بخاتمه ليشرط
الأمام فيها ما يشاء، فاملى الإمام شروطه ومن ثم كتب
معاوية جميع ذلك بخطه وختمه بخاتمه واعطى العهود
الأكيدة وبذل الأيمان الغليظة واشهد على ذلك جميع
رؤساء اهل الشام(1).

لكن الذي حصل انه سرعان ما نقض عهده ولم يف
بوعده ولم يعمل بشروطه وقال قولته المشهورة: " اني
كنت مَنيت الحسن واعطيته اشياء وجميعها تحت قدمي
لا افي بشيء منها"(2).

ب.الحاق زياد بأبي سفيان: قام معاوية بالحاق زياد بابيه ابي سفيان
بدعوى انه ارتكب الزنى في الجاهلية مع سمية التي كانت
زوجة عبيد وكانت حجته شهادة ابي مريم الذي كان تاجر
خمر، مع ان رسول الله(ص) قال: " الولد للفراش وللعاهر
الحجر" وقد كان عمل معاوية من اعمال الجاهلية، ولذا
انكر عليه كافة الناس ذلك فلم يبال بل كان يغضب اذا لم
يدع زياد اللا ابيه فقال له معصرية:

اتغضب ان يقال ابوك عف وترضى ان يقال ابوك زاني(3)

اما هدف معاوية من وراء ذلك فهو أن يمتن العلاقة
مع زياد من أجل ان يكون اداة اطوع في يده

(1) الإجتهد في مقابل النص ص 370.

(2) الإرشاد، ج2، ص14.

(3) الإجتهد في مقابل النص، ص 353.

يستخدمها في ممارسة اعمال القتل والتعذيب
والتنكيل التي كانت ترتكب بحق اتباع اهل البيت
(ع) ومواليهم.

ج. شرب الخمر: لم تكن رموز السلطة الأموية لتتورع عن تعاطي
الخمور وقد كان فيما وصف الإمام الحسين (ع)
يزيد ان قال: " ويزيد بن معاوية، رجل فاسق معن
بالفسق وقاتل النفس المحترمة شارب الخمر... " (1).

وقد رُوى هذا الأمر بالنسبة لمعاوية نفسه، كما
ذكر ذلك احمد بن حنبل في مسنده عن عبد الله بن
بريدة قال " دخلت انا وابي على معاوية فاجلسنا على
الفرش، ثم اتينا بالطعام فأكلنا ثم اتينا بالشراب
فشرب معاوية ثم ناول ابي، ثم قال: " (اي ابوه) ما
شربته منذ حرمه رسول الله (ص) (2).

د. إباحة الربا: ان عدم الإعتناء بالضوابط الدينية من قبل رموز

السلطة وارتكابهم المحرمات لم يكن في مجال دون
آخر، بل ان الجرأة على حرمان الله قد جعلت
معاوية لا يرى بأساً في الربا، فقد اخرج مالك
والنسائي من طريق عطاء بن يسار ان معاوية باع
سقاية من ذهب او ورقٍ بأكثر من وزنها، فقال له

(1) صفحات من تاريخ كربلاء ص 163 (عن مجمع الزوائد).

(2) احمد النفيس، على خطى الحسين، ص46، راجع ايضاً: مرتضى العسكري
أحاديث ام المؤمنين عائشة، ج1، ص299-300.

ابو الدرداء رضي الله عنه: سمعت رسول الله (ص) ينهي عن مثل هذا مثلاً بمثل، فقال له معاوية ما ارى بهذا بأساً".

وروى مسلم في صحيحه ان معاوية غزا غزاة كان فيها عبادة بن الصامت فغنموا فيما غنموا آنية من فضة فأمر معاوية رجلاً ان يبيعها في اعطيات الناس فسارع الناس إلى ذلك فبلغ عبادة بن الصامت فقام فقال اني سمعت رسول الله(ص) ينهى عن بيع الذهب بالذهب والفضة بالفضة... إلا سواء بسواء وعيناً بعين فمن زاد او ازداد فقد اربى، فرد الناس ما أخذوه، فبلغ ذلك معاوية فقام خطيباً فقال: ألا ما بال رجال يتحدثون عن رسول الله احاديث قد كنا نشهده ونصحبه فلم نسمعها منه، فقام عبادة بن الصامت فأعاد القصة ثم قال: لنحدثن بما سمعنا من رسول الله (ص) وان كره معاوية(1).

هذه نماذج من تجاوزات السلطة واستهتارها بالدين وانحرافها عنه، وهذا ما يكشف عن عدم التزامها به إلا بمقدار ما يكون لها ستراً وغطاءً، بل ابرزنا من خلال ما تقدم سعي تلك السلطة الى اسقاط الدين باسم الدين، لما كان يمثل الدين بصورته النقية ومفاهيمه النبوية من حاجز يحول دون أخذهم بالشهوات

(1) احاديث ام المؤمنين عائشة ج1، ص 299.

وغرقهم في الملذات، فكان لا بد من اسقاط الدين عداوة له ولأهله من جهة ومن أجل وصولهم إلى دنياهم من جهة اخرى، ولذلك كان لا بد من كربلاء وكان لا بد من عاشوراء، والتي استطاعت ان تنجز تلك المهمة بكل جدارة وان تفصل بين الإسلام الأموي والإسلام المحمدي، ل يبقى الإسلام حياً نقياً إلى يومنا هذا.

هل كان للعداء والحقن دور في صناعة الأحداث؟

كنا في مقام تعليلنا للأحداث نبرز حقيقة تاريخية مفادها ان المشروع الأموي كان مشروعاً سلطوياً دنيوياً يهدف إلى السلطة بما تعنيه كلمة السلطة من جاه ومال وعز دنيوي، ولذلك واجهوا اهل البيت (ع) ومدرسة الإمامة ادراكاً منهم انه لن تستقيم لهم الأمور دون نيلهم من أهل البيت (ع) ومكانتهم المعنوية والاجتماعية، لكن هنا سؤال مفاده انه الا يمكن ان يكون من جملة تلك الدوافع العداوة للنبي محمد وأهل بيته وعدم تبنيهم للدين كعقيدة ورؤية للحياة، وحقداً منهم على احداث الماضي؟

ان الذي يقرأ تاريخ اركان السلطة الأموية يصل إلى هذه النتيجة انهم قاتلوا الإسلام بكل امكانياتهم وحتى الأيام الأخيرة قبل ان تسقط الأمور من ايديهم ويفرض الإسلام سلطانه حيث لم يعد بالإمكان مقاومة هذا الدين، بل إن حسابات المصلحة تقتضي الدخول فيه والسعي للحصول على السلطان والمكاسب من خلال هذا الدين.

وهذا ما نجده في وصية معاوية لابنه يزيد حيث يؤكد عليه بعدم ترك الصلاة أمام الناس، لكن الحرص على إظهار التمسك بالإسلام

والتظاهر بالدين لا يمنع من وقوع بعض الفلتات التي تظهر حقيقة النوايا وطبيعة الدوافع والموقف الحقيقي من رسول الله ومن رسالة الاسلام وقد كشف الإمام الحسن (ع) عن هذه الحقيقة امام معاوية نفسه إذ انه دعى الإمام الحسن (ع) إلى بيته ولبي الإمام الدعوة لكن عندما دخل معاوية وجد عنده عمرو بن العاص والوليد بن عقبة وعقبة بن ابي سفيان والمغيرة بن شعبة فما ان رأوا الحسن حتى بدأوا بالشتم فالتفت الإمام الحسن (ع) إلى معاوية وقال له:

اما بعد يا معاوية، فما هؤلاء شتموني ولكنك شتمتني فحشاً ألفته وسوء رأي عرفت به، وخلقاً سيئاً ثبت عليك وبغياً علينا عداوة منك لمحمد واهله(1)....

وهذا ما ظهر بشكل واضح لدى ابنه يزيد فالولد سر أبيه، إذ المشهور عنه أنه لما حضر رأس الإمام الحسين بين يديه جنع أهل الشام وجعل ينكت عليه بالخيزران ويقول:

ليت اشياخي ببدر شهدوا
قد قتلنا القرن من ساداتهم
وقد قال الشعبي ان يزيد زاد على هذه الأبيات:
وقعة الخزرج من وقع الأسل
وعدلنا ميل بدر فاعتدل

لعبت هاشم بالملك فلا
لست من خندق ان لم انتقم
خبر جاء ولا وحي نزل
من بنى احمد ما كان فعل(2)

فقضية يزيد قضية الإنتقام من آل محمد (ص) لما فعله

(1) الشيعة والحاكمون ص 71.

(2) معالم المدرستين ج 2، ص 202.

رسول الله(ص) بأجداده الذين كانوا في صف المشركين يقاتلون الرسول.. وبالتالي فقتل آل الرسول هو في مقابل قتل الرسول لأجداده وبني قومه.. وليس بعيداً ان يكون الحقد والانتقام والثأر من محمد (ص) وجه من وجوه القضية بل وهذا ما صرح به معاوية نفسه فيما يرويهِ المطرف بن المغيرة بن شعبة يقول: دخلت مع أبي علي معاوية فكان أبي يأتيه فيتحدث معه، ثم ينصرف أبي فيذكر معاوية وعقله او يعجب بما يرى منه، إذا جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء ورأيتهُ مغتماً فانتظرتهُ ساعة وظننت انه لأمر حدث فينا، فقلت مالي أراك مغتماً منذ الليلة؟ فقال يا بني جئت من أكفر الناس واخبثهم، قلت : وما ذاك؟ قال: قلت له وقد خلوت به : انك قد بلغت سنأ يا أمير المؤمنين، فلو اظهرت عدلاً وبسطت خيراً فإنك قد كبرت، واو نظرت إلى اخوتك من بني هاشم فوصلت أرحامهم، فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه، وان ذلك مما يبقى لك ذكره وثوابه، فقال هيهات هيهات! اي ذكر ارجو بقاؤه؟ ملك اخو تيم فعدل وفعل ما فعل، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره إلا ان يقول قائل: ابو بكر، ثم ملك أخو عدي فاجتهد وشمر عشر سنين، فما عدا ان هلك حتى هلك ذكره، إلا ان يقول قائل: عمر، وان ابن أبي كبشة ليصاح به كل يوم خمس مرات " اشهد ان محمداً رسول الله" فأي عمل يبقى؟ وأي ذكر يدوم بعد هذا لا أباً لك؟ لا واله دفناً دفناً(1).

اي دفناً لذكر محمد، وهو دعاء على ذكر رسول الله (ص)، ألا يكشف ذلك عن حقد دفين على رسول الله(ص) وأهل بيته يعود إلى بدر وأحد وسائر المواجهات مع قريش والتي تكللت بفتح مكة والقضاء على الشرك وتحطيم الأصنام؟

(1) معالم المدرستين ج2 ، ص 366-367.

وهو ما يمكن أن يستفاد من قول يزيد (وعدلنا ميل بدر فاعتدل) وهذا يؤكد ان المواجهة مع اهل البيت (ع) هي في الحقيقة مواجهة مع الدين ومع سنة الله ورسوله، وهذا ما كان يهدد تلك الإنجازات التي كان قد حققها رسول الله (ص) على المستوى الديني وغير الديني، أي ان الدين والمعرفية الدينية قد كانا في خطر وهذا ما حدا بالأئمة (ع) الى مواجهة المشروع الأموي وبالإمام الحسين(ع) الى تقديم نفسه واهل بيته وأصحابه من أجل قضية الإصلاح عامة والإصلاح الديني بشكل خاص.

حصاد ونتائج

1. ان قراءة تجربة الثورة الحسينية والوصول إلى هذه النتيجة بان السلطة الأموية التي كانت قريبة عهد بحياة رسول الله (ص) قد عملت على اختراق تراث الرسول (ص) وسنته من خلال علماء البلاط وتجار الرواية من اجل تشكيله بطريقة تنسجم ومصالحها، ان هذه النتيجة تؤكد علينا ان نعيد قراءة التراث الديني والإسلامي آخذين بعين الاعتبار ان العامل السلطوي كان له أكثر من اثر في تكوين ذلك التراث، مما يؤكد علينا ضرورة تمحيصه والتدقيق فيه من أجل ان نكتشف النصوص السلطوية التي عملت السلطة على انتاجها وزرعها في مفاصل ذلك التراث، وان نستحضر من جديد تلك النصوص التي همشتها السلطة او عملت على تحييدها أو تأويلها بغية ابعاد مفعولها عن المساهمة في تشكيل الوعي السياسي والاجتماعي للمجتمع الإسلامي.

ان الدعوة التي أود تسجيلها هنا هي دعوة منهجية بمعنى ان نأخذ بالحسبان في المنهجية المعتمدة لقراءة التراث الديني احتمال دخالة السياسي بشكل أو بآخر في هذا النص او ذلك، من أجل ان نؤسس لعملية تنقية التراث الإسلامي من الرواسب السلطوية، التي اضفت عليها السلطة هالة من القداسة لمصالح أنية ومحدودة، لكن اثرها

التخريبي ما زال مستمراً الى الآن.

2. ان من يتحدث عن عدم الحصيلة المهمة للثورة الحسينية يحتاج إلى قراءة دقيقة لتلك الثورة آخذاً بعين الاعتبار – فيما يجب ان يأخذه – ذلك البعد الإصلاحى الدينى للثورة وذلك الهدف المعرفى – الدينى والذي هو هدف اساس ومهم، إذ ان من نتائج حركة الإمام الحسين(ع) وشهادته انها حطمت تلك الواجهة الدينية التي كانت تتلظى السلطة خلفها وقضت على اي أثر لكل تلك الصناعة المعرفية التي جهدت السلطة على انتاجها لتسهم في نسج الوعي الإسلامى العام.

ان السلطة الأموية قد استعانت ببعض الرموز الدينية لتعطي لباساً دينياً لثقافتها المنحرفة- ثقافة السلطة – لكن مع اقدمها على قتل الإمام الحسين (ع) سبط رسول الله (ص) الذي جعله الرسول إماماً وهادياً، لم يعد يجديها اي تبرير دينى او ينفعها اي تستر، لقد سقطت دينية السلطة وسقط كل تنظير لمشروعيتها الدينية، وبان بشكل لا لبس فيه ان تلك السلطة لا تقيم اي وزن للدين وحرماته لأنّ سلطة تقتل سبط رسول الله (ص) وحببيه لا يمكن ان تكون سلطة دينية، وعليه فان من النتائج المهمة جداً لشهادة الإمام الحسين(ع) هو افقاد السلطة الأموية سلاحاً هاماً كان في يديها ألا وهو سلاح الدينى والمعرفية الدينية، والا لولم تفقد السلطة هذا السلاح الخطير لكان حجم الأضرار والمفاسد كبيراً وخطيراً أكثر من الخطر والضرر المترتب على وجود السلطة نفسها، إذ ان السلطة يزول اثرها بزوالها لكنها إذا تركت تراثاً منحرفاً وفساداً باسم الدين فإن تلك المفاسد ستستمر باستمرار ذلك التراث او باستمرار آثارها وبصماتها عليه.

3. ان تجربة السلطة الأموية هي نموذج لتلك السلطة التي تسعى دوماً لزيادة سلطتها وقوة نفوذها من خلال اضافة بعض العناصر السلطوية إلى سلطتها المملوكة، والمقصود بالسلطة هنا هو معناها العام الذي يتسع لكل ما من شأنه ان يمارس تأثيراً في الوسط الاجتماعى

والسياسي. وعليه فإن تلك السلطة عندما تجد مؤسسة ما او منظومة ما او عقيدة تمتلك ذلك التأثير فإنها تكون امام خيارات، فإما ان تصطدم بتلك السلطة المنافسة في محاولة منها لإبعاد خطر تأثيرها، او ان تعمد الى احتواءها والسيطرة عليها او في الحد الأدنى الإستفادة منها بالقدر المطلوب، لكن لاشك ان الخيار الآخر إذا كان متاحاً فسيكون الخيار الأفضل في حسابات السلطة.

ان قوة تأثير الدين في الوسط الإجتماعي والسياسي كان ولا يزال يمثل مشكلة جدية للسلطة الحاكمة -تلك السلطة المصابة بالنزعة الإحتكارية - وهي ستسعى إلى احتواء تأثير الدين والى الإمساك بزمام السلطة الدينية او محاولة الإستفادة منها بمستوى او آخر، وخصوصاً إذا كان هناك علاقة وثيقة بين السياسي والديني، عندها سيكون من الضروري الحصول على المشروعية الدينية من اجل الحصول على المشروعية السياسية او من اجل الإستقواء السياسي، ان هذه المعادلة توضح جدلية العلاقة بين السياسي الأموي الذي يمثل حقلاً خصباً لتلمس كل مظاهر تلك الجدلية وآلياتها من اجل تقديم رؤية واضحة وكاملة لها، لانها ليست حكراً على التجربة الأموية بل هي في كل زمان نجد فيه تعدد في السلكات - التأثير - فعندما تجتمع السلطة السياسية والسلطة الدينية في ميدان واحد سنجد تمظهراً لتلك الجدلية، وسنجد من طرف السلطة السياسية اما قبولاً بالسلطة الدينية او رفضاً لها او محاولة للإستفادة منها بأي شكل من الأشكال، أما من طرف السلطة الدينية فسنجد ام ممانعة او مسايرة او استعداداً لعقد صفقات قد يتم فيها حتى تجاوز الدين نفسه.

ان المجتمع عامة يحتاج الى ادراك تلك الجدلية ووعيتها حتى يمتلك القدرة على التمييز بين سلطة سياسية تعترف لسلطة اخرى بوجودها وتحترم تأثيرها وتكون على استعداد للتعايش معها، وبين سلطة سياسية لا تعترف بوجود سلطة اخرى، وهي في افضل الاحتمالات تسع الى تجييرها لصالحها والإمساك بزمامها، او ان خيار مواجهتها والقضاء عليها يكون وارداً.

كما انه يحتاج إلى التمييز بين سلطة دينية – أو رموز دينية- تحافظ على مبادئها وقيمها الدينية وتكون على استعداد للذهاب الى ابعد مدى في عطائها وتضحياتها احتراماً لعقيدها وصوناً لرسالته، وبين سلطة دينية – أو رموز دينية – تكون على استعداد للتخلي عن تلك المبادئ والقيم لقاء مكاسب دنيوية، بل ربما تقبل حتى بتحريف الدين نفسه والدس فيه إذا بذل لهم ما يرغب في مثله كما شهدنا في تلك التجربة المعبرة التي دونتها السلطة الأموية في سجل التاريخ.

4. ان تعرض الدين لخطر الإنحراف وتراث رسول الله (ص) للضياع يتطلب في بعض الأحيان الكثير من التوضيحات قد تصل إلى حد تقديم الأنفس والأموال في سبيل حفظ هذا الدين وحمايته من الفساد والإنحراف، كما حصل مع الإمام الحسين (ع)، ان حاجة الدين لمثل تلك التوضيحات الجسيمة هي بمثابة اختبار لنعادن الرجال وبها تعرف الأحوال، ففي مثل ذلك الظرف العصيب حيث أخذت السلطة الأموية تحطم الدين باسم الدين وتنتهك شريعة رب العالمين، عندها يعرف من يملك الغيرة أكثر على الدين ومن يكون مستأمناً على حمايته وحفظه بل ويكون مستعداً للتضحية من اجل صونه من أيادي الفساد والإنحراف.

ان حرب السلطة الأموية على الدين استطاعت ان تكشف من هم الوارثين فعلاً لرسول الله(ص)، ومن هم الذين كانوا حريصين على تراثه وجهده وجهاده حتى لا تدوسه عجلة السلطة.

ان حادثة كربلاء رغم كل تلك المآسي التي تركتها وما حدث فيها وبعدها فإنها اثبتت ان مدرسة اهل البيت (ع) هي التي كانت معدة ومعينة من رسول الله (ص) لقيادة المشروع الإسلامي على كافة المستويات، وما كان خروج الإمام الحسين (ع) إلا بدافع من الدين ومن اجل هذا الدين نفسه، ولذلك صدق من قال ان الإسلام محمدي الوجود وحسيني البقاء، لأن حسيناً من محمد (ص) ومحمد(ص) من حسين وكلهم بيت واحد صلوات الله وسلامه اجمعين.

5. ان المدرسة التي خرج قاداتها من اجل حماية الدين وحفظه وكان جل اهتمامها وجهدها وجهادها من اجل ان يصل الدين إلينا سليماً من اي انحراف، والتي واجهت عمليات الوضع وتجار الحديث وسماسة الرواية لنمسك بإرث رسول الله خالياً من عبث السلطة، إن هذه المدرسة عندما جهدت من اجل ان يصل إلينا الدين بتلك الصورة النقية وعملت على نقل تراث رسول الله خلفاً بعد سلف، فهذا يعني انها المدرسة التي يمكن الركون إليها أكثر والاعتماد عليها أكثر والوثوق أكثر بما نقلته بعنوان كونه مأخوذاً عن رسول الله (ص)، ان مدرسة تجعل من أولى إهتماماتها حفظ ذلك التراث وتقدم الغالي والنفيس من اجل وصوله إلينا سليماً ويستشهد قائد من قاداتها في سبيل ذلك - وهو الإمام الحسين (ع) - لهي المدرسة التي يمكن الإطمئنان أكثر إلى تلك الأمانة التي حملتها طيلة عقود من الزمن حتى تُسلمنا إياها، واعني بتلك الأمانة ذلك الرصيد الروائي المنقول عن رسول الله (ص) والذي له دور أساسي ومهم في شرح الدين وتبيين مفاهيمه وتحديد احكامه، ان حادثة كربلاء تفصح عن حقيقة هامة ألا وهي ان المادة الروائية التي نقلها أئمة أهل البيت (ع) يجب ان تأخذ دوراً أساسياً في صياغة المفاهيم الدينية ونتاج كل الأحكام التي ترتبط بالدين من قبل كل المسلمين، والا يتم حصر تلك المادة في اتجاه

اسلامي محدد بحيث تُحرم منها بقية الإتجاهات الإسلامية، لأن تراث رسول الله (ص) الروائي ليس لمذهب دون آخر بل هو لجميع المسلمين ومن حقهم بل عليهم ان يستفيدوا منه.

6. في مقابل تلك النزعة الإحتكارية للسلة السياسية فإن النص الديني يملك من عناصر الحصانة ما يحول دون تحول المؤسسة الدينية ورموزها إلى أدوات بيد تلك السلطة لتحركها في الإتجاه الذي يخدم مصالحها.

ان ذلك الجانب من النص الديني الذي يحصن اداء المؤسسة الدينية ويزرع فيها بذور الممانعة، ان هذا الجانب يجب تفعيله بأن يؤخذ من النص الديني ويعمل على انشاء خطاب يعتمد تلك المادة من النص، وان يعمل على تكوين ثقافة مستمدة من ذلك النص لتكون ثقافة الممانعة في مقابل ثقافة جنوح السلطة ومغرياتها.

ان هذه الثقافة يجب ان تكون عنصراً أساسياً في المادة المعرفية التي تستهلكها تلك المؤسسة، فضلاً عن ان النص الديني بطبيعته وبهدفه يأخذ إلى عالم الغيب وهو وإن كان يسبح في عالم الدنيا ويشرع لها ولا يهملها، لكنه يجعل منها ممراً إلى الآخرة والى رضوان الله.

ومع ذلك فإن قسماً من ذلك النص قد توجه مباشرة لعلاج قضية العلاقة مع السلطة - الدنيا -، وقال إذا رأيت العلماء على ابواب الحكام فبئس العلماء وبئس الحكام، وحذر من حب الشهرة ومن طلب الجاه والسمعة، وليس لديكم ما نرجوه ولا لدينا ما نخاف منكم عليه... ان المؤسسة الدينية - رموزها واشخاصها - يجب ان تكون تعبيراً عن ذلك النص، والنص يجب ان يتجلى فيها ومن خلالها، ويجب ان تحكي النص وتحكي عنه، بل ان دينيتها هي بمقدار ما تكون معبرة عنه ومجلية له.

ولذلك فإن ثقافة الممانعة واخلاقية الحصانة وعلو الجانب امام دنيا

السلطة وسلطة الدنيا، كل ذلك يجب ان يكون واضحاً في سلوك تلك المؤسسة ومثالاً في ادائها، اما إذا وجدنا بوناً بين ما يحكيه ذلك النص وما تفعله تلك المؤسسة فبئس العلماء وبئس مؤسستهم.

7. عندما نكتشف وجود مؤسسة دينية سلطوية ووجود تشكيلة من علماء البلاط وخصوصاً أولئك الذين تعاونوا وتعاملوا مع السلطة الأموية، يجب عندها ان يكون لإنخراط أحد الرواة في تلك التشكيلة نتيجة سلبية في ميزان الجرح والتعديل، وان يتم التعامل مع روايته بحذر شديد لأن قبوله بالإنضمام إلى تلك المؤسسة التي تُستغل ويستفاد من رموزها من اجل الإفساد الديني وتخريب المفاهيم الدينية هو بمثابة علاقة سلبية في ميزان الجرح والتعديل، بل إن مجرد الإنضمام إلى أي من مؤسسات تلك السلطة – والتي هي سلطة منحرفة عن الدين وتعمل على محاربتة – يجب ان يؤخذ على اساس انه مؤشر سلبي بحق ذلك الراوي.

ان مجموعة من نقلة الرواية كانت لهم علاقات وطيدة مع السلطة الـأموية بل إن البعض منهم تزعم بعض اعمالها إن هؤلاء قد نقلوا إلينا كماً من الروايات التي تفرض علينا الدقة والموضوعية دراسة روايتهم بمنهج مختلف ولربما يكون لصدقية وصفهم بالسلطوية نتيجة سلبية على مجمل رصيدهم الروائي.

8. ان الإمام الحسين (ع) في الوقت الذي استطاع بدمائه ان يحفظ الدين، ولن يعطي بشهادته القوة والدفع لمدرسة اهل البيت (ع) وان يحطم المدرسة الفكرية للحزب الأموي، فإنه استطاع ان يحقق انجازاً آخر عظيماً لا تقل عظمتة عن عظمة ذلك الإنجاز في عصره الا وهو ترسيخ نهج الإستشهاد في سبيل الحفاظ على الدين، ومن اجل استمراره نقياً سليماً من اي انحراف حتى يصل الى جميع الناس لم تدخله بدعة ولم تعتريه شبهة لا يؤثر فيه وضع واضع او يخترقه كذب كاذب.

لقد استطاع الإمام الحسين (ع) بشهادته ان يرسخ في وعي الأمة قيماً ساهمت وتساهم في استمرار هذا الدين، ان قيماً كالغيرة على الدين والتضحية من أجل العقيدة والإستشهاد في سبيل مقاومة الفساد والانحراف، هي قيم دخلت في صميم وعي المسلمين وتجذرت في نفوسهم وألفت قناعاتهم.

ان هذا النهج الذي اعطته شهادة الحسين (ع) رونقاً خاصاً، وازافت اليه عاشوراء اكثر من معنى هو صمام امان اساسي وعامل مهم من اجل استمرار الروح الدينية حية دفاقة في وعي المسلمين ووجدانهم. 9. في معرض نقاشنا لمن يقول بعدم الحصيلة المهمة لثورة الإمام الحسين (ع) نستطيع ان نقول بنتائج اساسية ومهمة لتلك الثورة ولو على المستوى البعيد والإستراتيجي، لقد تحدثنا عن نتائج مهمة على مستوى المعرفة الدينية فيما يرتبط بالحفاظ على الدين واسقاط المشروعية الدينية وبالتالي السياسية عن السلطة الأموية، ولا شك ان هذه النتيجة قد ادت إلى ضعف تلك السلطة والى التمهيد لاسقاطها بعد عقود من الزمن.

واستطاع الإمام الحسين (ع) ان يشق طريق المواجهة مع السلطة الأموية من خلال تعريتها وفضحها بالكامل، ومن خلال كسر حاجز الخوف وتحريك ارادة الأمة التي وهنت وبعث عزيمتها التي خمدت، وهو ما أدى الى حصول ثورات متتابعة ومتلاحقة كثورة المختار والتوابين التي ساهمت كل منها في اضعاف السلطة الأموية وفي تقريب اجل سقوطها.

فضلاً عن كل ذلك يمكن لنا أن نشير الى أن نتيجة من نتائج الشهادة لا تقل اهمية عما عداها، هذه النتيجة التي ساهمت بدورها في اضعاف السلطة ورزع شعور النعمة عليها، وهو ما عبر عنه يزيد عندما قال ان قتل

الحسين(ع) قد كرهه المسلمون به(1).

إن مكانة الحسين (ع) كانت معلومة عند المسلمين انه سبط رسول الله (ص) وابن فاطمة الزهراء (ع) وأمير المؤمنين علي بن ابي طالب، وانه من قال عنه رسول الله (ص) انه سيد شباب أهل الجنة، وانه امام قام او قعد... ولذا فإن إقدام السلطة على قتل ريحانة الرسول(ص) وسبطه الوحيد في ذلك العصر وبتلك الطريقة المأساوية، قد أدى إلى ردة فعل شعورية متعاطفة مع قضية الحسين (ع) وناقمة على قاتليه وعلى الذين ارتكبوا تلك المأساة الرهيبة التي أدمت قلوب المسلمين وصدمت وجدانهم، فهاجت المشاعر حقداً وكرهاً ونقمة على السلطة واعوانها، في الوقت الذي استطاعت العاطفة ان تخلد قضية الحسين (ع) وان تحافظ عليها حية وحارة في قلوب المؤمنين فإن شعور النقمة والكره لرموز الجريمة وادواتها ساهم ويسهم في عزل واقصاء كل ما يرتبط بالسلطة، إن نظرة المجتمع الإسلامي بعين الكره للسلطة الأموية قد اجج مشاعر العداة نحوها تلك المشاعر التي استفحلت اكثر بسبب الجرائم المتتالية التي كانت ترتكب من استباحة المدينة الى هدم الكعبة الى قتل على التهمة واطهار العداة لآل بيت النبي (ع)... ان كل ذلك ادى الى زرع العداوة في قلوب المسلمين بالنسبة الى الأمويين، هذه العداوة التي كانت تنفجر بين حين وآخر ثورة هناك، وثورة هناك إلى أن قضت على سلطانهم وابداتهم ولم يتبق لهم من ذكر إلا لذاكر متعظاً او داعٍ عليهم بالويل والثبور او لاعن لأهل الظلم ومن اعانهم وشايعهم ورضي بفعلهم .

(1) الأمويون والخلافة، ص 93.

فهرس

7	مقدمة الكتاب
13	مدخل
17	الإصلاح في اللغة
17	مفهوم الإصلاح الديني:
20	الإصلاح في القرآن الكريم:
24	الإصلاحي الأعظم:
28	الإصلاح الديني في تجربة الإمام علي (ع):
35	الإصلاح الديني في تجربة الإمام الحسن (ع):
37	الإصلاح الديني في تجربة الثورة الحسينية:
38	1-الهدف ايقاظ ارادة الأمة:
39	2-الهدف الوصول الى الحكم:
40	3-الهدف نزع المشروعية السياسية والدينية عن السلطة الأموي:
44	هل كان الإمام الحسين (ع) يعلم بشهادته؟
46	تحليل لأهداف الثورة:
51	الإصلاح الديني في رؤية الإمام الخميني والقائد الخامنئي:
53	الإصلاح الديني في رؤية الشهيد المطهري:
59	المعرفي والسياسي لدى اركون:
61	المعرفي والسياسي لدى الجابري:

- 63.....إضاءة على حقيقة تاريخية:
- 67.....المؤسسة الدينية السلطوية:
- 69.....الأدوات المعرفية للسلطة:
- 69.....1. الحديث:
- 70.....2. التفسير:
- 71.....3. علم الكلام:
- 72.....المشروع المعرفي الثقافي للسلطة:
- 74.....1. تحطيم المدرسة المعرفية والفكرية لأهل البيت (ع):
- 75.....أ. اختلاق الأحاديث لزم علي (ع):
- 79.....ب. شتم الإمام علي (ع) وسبه:
- 82.....ج. لعن الإمام علي (ع):
- 84.....2. المدرسة الفكرية للسلطة الأموية:
- 85.....(1) حرمة الخروج على الحاكم الظالم والجماعة الضالة:
- 90.....(2) رفع المكانة المعنوية والعلمية لرموز مدرسة الخلافة:
- 92.....(3) نظرية عدالة الصحابة:
- 94.....(4) الجبر:
- 99.....(5) الإرجاء:
- 101.....(6) الأخذ بثقافة أهل الكتاب والترويج لها:
- 103.....(7) عدم الإعتناء بالضوابط الدينية:
- 107.....هل كان للعداء والحقد دور في صناعة الأحداث؟
- 110.....حصاد ونتائج